جامعة عمار ثليجي-الأغواط
كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية
قسم التاريخ

دور الرحلة العلمية في انتقال المذاهب الفقهية و العقدية – المالكية و الأشعرية أنموذجا- من ق 3 هـ إلى ق 6 هـ

مذكرة لنيل شهادة الماستر في تاريخ المشرق الاسلامي

إعداد الطالب:
-قادري حمزة

إشراف الأستاذ:
فوزي رمضاني

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الجامعة	الصفة
د. جعيرن معمر	عمار ثليجي- الأغواط	رئيسا
د. فوزي رمضاني	عمار ثليجي- الأغواط	مشرفا ومقررا
د. طارق مريقي	عمار ثليجي- الأغواط	ممتحنا

السنة الجامعية: 1440-1441هـ / 2019-2020م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر و تقدير

الشكر لله عز وجل أولا و آخرا الذي وفقني إلى إنجاز هذا العمل ...

و لا يشكر الله من لا يشكر الناس ...

و أتوجه بجزيل الشكر للأستاذ الدكتور "**رمضاني فوزي**" لقبوله الإشراف على هذا البحث ...

كما أشكر الصديقين "**يوسف حشاشنة**" و "**زياني عيساوي**" على كل المساعدات التي قدماها لي ...

و لا أنسى أعضاء لجنة المناقشة ...

و كل من ساهم في هذا العمل بتوجيه أو فائدة أو تحفيز ...

فهلم مني جميعا كل الشكر و التقدير ...

وَلَو أنّني أُوتيتُ كلَّ بلاغّةٍ * و أفنيت بحر النُطق في النَّظْمِ و النَّثرِ**

لَماَ كُنتُ بَعدَ القوْلِ إلاَّ مُقَصّراً * و مُعترِفاً بالعجْزِ عن واجِبِ الشُّكرِ**

مـــــقدمة

مقدمة:

عرف المشرق الإسلامي في القرون الأولى تبلورا جليا للمذاهب الفقهية والعقدية والتي أسست لنفسها مدارس فكرية قائمة بحد ذاتها، فكان مذهب مالك أحد أبرز هذه المذاهب الذي ذاع صيته في كامل الأرجاء شرقا وغربا، ولم يكن المغرب الإسلامي بعيدا عن هذه التحولات والتطورات وما لبث أن عرفت المنطقة نقلة نوعية بقيام نهضة فكرية تزامنت مع انتشار المذاهب الفقهية ثم العقدية عن طريق الرحلة العلمية وذلك من القرن الثالث هجري إلى القرن السادس هجري.

أسباب اختيار الموضوع:

شغلنا موضوع الصراع المذهبي بين المالكية الذين تفردوا بسيادة الاتجاه السني ببلاد المغرب على رغم الصعوبات والتحديات التي واجهتهم، ولاحظنا أن مذهب المالكية قد حظي بكثير من الأبحاث والدراسات ولاحظنا أيضا قلة التطرق إلى موضوع العقيدة الأشعرية ببلاد المغرب ومزاحمتها لعقيدة أهل السنة والجماعة التي تمسكت بالأثر، وهذا ما مكنهم من تجاوز المحن والاضطهادات التي لحقت بهم خاصة أثناء حكم الموحدين.

ولعل لهفة شوقنا لاختيار هذا الموضوع جعلتنا نجتهد في هذا الميدان ونساهم بدراسة متواضعة، استنادا إلى الدراسات السابقة في هذا المجال للتوصل إلى معرفة طبيعة العلاقة بين المذهب المالكي الممثل لأهل السنة والمذهب العقدي الأشعري الممثل لأهل الكلام.

إشكالية الموضوع:

لمعالجة موضوع دور الرحلة العلمية في انتقال المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية إلى المغرب نقوم بطرح الإشكالية الرئيسية التالية:

كيف ساهمت الرحلة العلمية في انتقال المذاهب الفقهية والعقائدية وتبلورها في المغرب الإسلامي!؟

للإجابة على هذه الإشكالية نطرح جملة من التساؤلات ألا وهي:

- ماهية الرحلة العلمية!؟

- كيف انتقل المذهب المالكي من المشرق إلى المغرب!؟، وما هو الدور الذي لعبته الرحلة العلمية!؟
- كيف ساهم علماء المالكية في نشر مذهب أهل السنة في المغرب!؟
- كيف نشأ و انتقل المذهب الأشعري من المشرق الإسلامي إلى المغرب الإسلامي!؟
- ما هو الدور الذي لعبه ابن تومرت في ترسيخ العقيدة الأشعرية في المغرب!؟

خطة الموضوع.

لمعالجة إشكالية الموضوع وعملا بشروط المنهجية المعروفة قمنا بتقسيم لموضوع إلى مقدمة وخاتمة يتخللها خمسة فصول جاءت كالتالي:

الفصل التمهيدي: قدمنا فيه عرفا من خلال التعريف بالرحلة العلمية وأنواعها وأهدافها ودورها الهام في انتقال المصنفات والمؤلفات الفقهية والعقائدية.

الفصل الأول: جاء بعنوان المذهب المالكي (النشأة والانتشار...) احتوى على ثلاث مباحث: الأول تناولنا فيه نبذة عن المذهب المالكي، والتعريف بصاحب المذهب ورأي العلماء والناس في شخصية مالك (رحمه الله)، أما المبحث الثاني فتناولنا فيه دخول المذهب المالكي إلى بلاد المغرب وطريقة دخوله والمراحل التي مر عليها قبل استقراره.

أما المبحث الثالث: فكان الحديث عن انتشار المذهب المالكي شرقا وغربا في المغرب.

الفصل الثاني: كان تحت عنوان جهود علماء المالكية في نشر مذهب أهل السنة بدوره اشتمل على ثلاث مباحث رئيسية، فخصصنا المبحث الأول: تأثر علماء المغرب بالإمام مالك وإتباع منهجه العلمي المعتمد على الأثر، أما المبحث الثاني فتناولنا فيه جهود فقهاء المالكية في تدوين الآراء العقدية.

أما المبحث الثالث: فتطرقنا فيه إلى جهود علماء المالكية في نشر الحديث والفقه المعتمد على الحديث وترك الرأي.

الفصل الثالث: كان عنوانه: المذهب الأشعري في المغرب وهو الآخر تم تقسيمه إلى ثلاث مباحث كان أولها للحديث عن نشأة المذهب الأشعري في المشرق وتعريف بصاحب المذهب

وأشهر أعلام المذهب، أما المبحث الثاني: تطور الأشعرية في المغرب، دخولها و أشهر رجالها وأهم المصنفات الأشعرية التي دخلت إلى المغرب.

أما المبحث الثالث: فكان بعنوان ابن تومرت ودوره في ترسيخ العقيدة الأشعرية بعدما ظل المغرب على مذهب السلف في الاعتقاد إلى غاية قيام دولة الموحدين.

الفصل الرابع والأخير :كان عنوانه موقف فقهاء المالكية من الدعوة الموحدية الأشعرية وهو الآخر نقسمه إلى ثلاث مباحث رئيسية أولها: رفض فقهاء المالكية للدولة الموحدية، حيث تطور هذا الرفض إلى صراع بين فقهاء المالكية والسلطة الموحدية، أما المبحث الثاني: تناولنا فيه محنة فقهاء المالكية أنصار المذهب السائد في المغرب ودعوة الأشعرية التجديدية الرافضة لكل قديم

أما المبحث الثالث: صمود وتشبث علماء المالكية بمذهبهم وذلك بعد الاصطدام بالموحدين الذين حاولوا تطبيق مذهبهم.

المنهج المتبع.

اعتمدت في دراستي لهذا الموضوع على المنهج التاريخي الوصفي القائم على جمع المادة التاريخية التي تخدم الموضوع والذي يسعى إلى التعرف على دور الرحلة العلمية في انتقال المذاهب الفقهية والعقدية وتطورها. بالإضافة إلى استعانتي بالمنهج التحليلي القائم على الاستنتاج والاستقراء وذلك بتركيب المعطيات التاريخية التي تسلط الضوء على المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية.

أهمية الموضوع.

تكمن أهمية الموضوع في كونه يسلط الضوء على جانب مهم وهو دور الرحلة العلمية في انتقال المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية من المشرق الإسلامي إلى مغربه، والتأكيد على أصول المد الإسلامي في بلاد المغرب سنية لا أشعرية، وإنما ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكذلك الاهتمام بمعرفة عقيدة أهل السنة والجماعة

وكشف معتقدات الأشعرية التي خالفت القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين و إجماع العلماء في القرون الخيرية الثلاثة.

دراسة المصادر والمراجع.

1. كتب الطبقات والتراجم.

اعتمدت في دراستي هذه على عدة مصادر ومراجع متنوعة أذكر منها:

كتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض بن موسى عياض ت 544هـ حيث أفادني في الحديث عن فقهاء المذهب المالكي، كما اعتمدت على كتاب "رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم ويسر أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم" لأبي بكر عبد الله بن محمد المالكي الذي عاش في القرن 5هـ وقد أفادني في إبراز وجهة النظر النسبة حول الصراع المذهبي كما اعتمدت على كتاب "الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب" للقاضي بن فرحون المالكي ت 799هـ/1396م أفادني في معرفة الفقهاء الذين احتلوا مكانة خاصة، وكتاب "سير أعلام النبلاء" لإبن شمس محمد بن أحمد عثمان الذهبي 714هـ/1314م الذي أفادني في معرفة فقهاء المالكية الذين رحلوا إلى بلاد المشرق.

2. كتب الجغرافيا والرحلات.

أفادني هذا الصنف كثيرا في تحديد الرحلة العلمية وبيان أهميتها وسماتها. واعتمدت على كتاب "رحلة الفلصادي الأندلسي" لعلي بن محمد الالقرسي ت 225هـ/891م أفاني بمعلومات عن الرحالة والمحدثين من أهل العلم المغاربة، أما الكتاب الثاني فهو "الرحلة في طلب الحديث" لأحمد بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي 392هـ/363 وقد أفادني من خلال أخبار رحلاتهم من أجل الحديث.

3. كتب التاريخ.

ومن أبرزها كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم لعبد الرحمان بن خلدون 732هـ/808م الذي أفاد البحث في عوامل انتشار واستقرار المذهب المالكي.

4. الدراسات السابقة.

استعنت بأبحاث ودراسات حديثة لها علاقة وثيقة بموضوع الدراسة منها "أهل السنة والجماعة في المغرب وجهودهم في مقاومة الانحرافات العقدية" الذي ساعدني على كشف مواطن الخلاف بين المذهبين.

بالإضافة إلى كتاب "تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي" ليوسف احنافة الذي أفادني بمعلومات غزيرة عن المذهب الأشعري.

المصاعب التي واجهتها في هذا البحث.

ينبغي الاعتراف على أن البحث في هذه المواضع –المذهبية– شاق وعسير لا يخلوا من عوارض الضعف والتقصير، إلا أن عزائنا أننا بذلنا جهدنا واستفرغنا وسعنا في حدود ما توفر لنا من الوقت والطاقة ليخرج هذا العمل في حلته هذه على ما يكون به مستحسنا ومقبولا والله عز وجل من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

الفصل التمهيدي:

ماهية الرحلة العلمية

تعد الرحلة العلمية دررا مرصعة في تاج التراث الاسلامي وذلك لما تشتمل عليه من فوائد في مختلف العلوم والأفهام وشتى العلوم العقلية والنقلية فمن خلال كتب الرحلة تسمع ما يشرب العقول والأذهان في عجائب التفسير وغير ذلك من مسائل الدين والعقيدة والفقه والأصول ودرر البلاغة والنقد والنحو، ورائق التصوف والزهد وبديع الشعر والنصر وسلسلة التراجم والأنساب والتاريخ.

المبحث الأول: تعريف الرحلة العلمية

مفهوم الرحلة: الرحلة في اللغة الترحيل والارتحال بمعنى الاشخاص والإزعاج، يقال رحل الرجل إذا سار،[1] هنا بمعنى السير والضرب في الأرض وجاءت الرحلة بمعنى الارتحال أي الانتقال من مكان لآخر، والترحل والارتحال الانتقال وهو الرحلة والرحلة اسم للارتحال، [2] وجاءت الرحلة أيضا بمعنى الجهة التي يقصدها الانسان الرحالة الارتحال، والرحلة بالضم الذي تأخذ فيه وتريده تقول: أنتم رحلتي أي الذين أرتحل إليهم، كما نطلق الرحلة أيضا على السفرة الواحدة، الرحلة السفرة الواحدة.[3]

لقد دعى الإسلام إلى الرحلة فقد تكررت دعوة الله لعباده بالمشي في مناكب الأرض ليروا عجب صنعه وباهر قدرته من الآيات والبيانات وما أودعه فيها من معادن ونبات وحيوان،[4] كما لفت القرآن الكريم الانتباه إلى فوائد الرحلة وأنواع الرحلات، قال تعالى: "إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2)" [سورة قريش، الآية 02]، فقد كان أهل مكة يألفون الرحلة والأسفار بغرض التجارة، وقد زادت بعد انتشار الاسلام بأغراض شتى.[5]

وأشهر رحلة علم وردت في القرآن الكريم هي رحله موسى عليه السلام مع الخضر ليتعلم منه، قال تعالى: "فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) "[سورة الكهف، الآية 65-68]، فهذه الآيات مثال واضح ضربه الله تعالى لطلب العلم وقد فهم المسلمون معنى ذلك مبكرا فسعوا الطلبة من مكان إلى آخر مع الحرص على لقاء العلماء والأخذ عنهم.

---

[1]- ابن منظور ابن مكرم، لسان العرب ج 11، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1390، ص 276.

[2]- محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج3، دار الجيل، بيروت، ص 394.

[3]- ابن منظور، مصدر سابق، ص 279.

[4]- عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها، ط 1، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 1997، ص 16.

[5]- عبد الحكيم عبد اللطيف ،مصدر سابق، ص 15.

فموسى عليه السلام بالرغم من بلوغه تلك المرتبة العالية عند الله واختصاصه بكلامه يرحل اصرارا على لقاء العبد الصالح بغض النظر عن المسافة والمشقة.

وأما الأحاديث الدالة على الرحلة في سبيل العلم، فقد حثَّ الرسول صلى الله عليه وسلم على الترحيب بطلبة العلم الذين يقدمون على مسجده ليعلموهم، فقد روي عن ابن سعيد الخضري، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "سيأتيكم أقواما يطلبون العلم فاذا رأيتموهم فقولوا لهم مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم واقنوهم"،[6] كما أوصى عليه الصلاة والسلام بطلاب العلم، عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهدين في سبيل الله"، [7]وعندما فهم الصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم التابعون فضل ذلك أكبو على العلم ينهلون منه، ورحلوا للأخذ من المدارس المنتشرة في الأقطار الإسلامية والتي يمثلها العلماء الموجودون بها بعد أن استقروا بها فهذا ذر ابن حبيش يخرج للقاء صفوان ابن عسال المرادي ليأخذ عنه، فسأله صفوان ما جاء بك؟ قال أطلب العلم، قال فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع"[8]

فهذا مفهوم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة للعلم، لذى كثرت الرحلات في سبيل طلب العلم سواء أثناء وجود الرسول قبل هجرته أو بعد هجرته إلى المدينة، وأيضا بعد انتقاله عليه الصلاة والسلام إلى جوار ربه، فكثرة الرحلات في طلب العلم الحديث وقطعت المسافات الطويلة لسماعه من العلماء المنتشرين آنذاك في الأقطار الإسلامية.

---

[6]– سعيد الخذري، صحيح سنن ابن ماجه، باب فضل العلماء والحث على طلبة العلم، رقم 248، مكتبة المعارف، الرياض، ط 1، 1997، ج 01، ص 98.

[7]– أبي هريرة، صحيح سنن ابن ماجه، باب فضل العلم والحث على طلب العلم، رقم 226، مكتبة المعارف، الرياض، ط 1، 1997، ج 01، ص 94.

[8]– يوسف ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج 01، تحقيق أبي الأشبال الزهري ط1، دار ابن الجوزي، السعودية، 1994، ص 111.

دوافع الرحلة العلمية:

لقد تعددت دوافع الرحلة العلمية وشملت عدة ميادين مختلفة وذلك حسب أهداف الرحالة ولعل أهمها ما يلي:

-لقد كان السلاطين والملوك يخصون الوافدين إليهم من الرحالة بالعناية الخاصة حيث ابتنوا لهم كامل المرافق للإقامة كما أحسنوا استقبالهم وإكرامهم خاصة أهل البادية الذين اشتهروا بإيثارهم للفقراء والغرباء والحجيج.[9]

-الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي كان له الأثر الواضح في ظهور الرحلات العلمية نحو ميادين النشاط الحضاري[10].

-العناية بالعلوم وتشجيع العلماء على البحث والتأليف، فلقد سعى الحكام إلى تقريب أولي العلم والمعرفة وإكرامهم، وتهيئة المناخ الملائم لهم للبحث في حقول المعرفة المختلفة وبالتالي تيسير السبل أمام الانتاج الفكري حسب تخصص كل منهم.[11]

-توفر الظروف المثالية خاصه لطلب العلم والحديث الذين كانوا يقصدون المراكز الثقافية والاسكندرية والحجاز أين توجد البقاع المقدسة من حيث الإزدهار الثقافي الذي شهدته المراكز العلمية، ويشوع ذكر علمائها مما حفز الرحالة أكثر على التوجه إليها للأخذ عن العلماء والتعرف على مناهجهم وعلومهم[12].

---

[9]- عبد اللطيف الصعيدي عبد الحكم ،مرجع سابق، ص 15.

[10]- ابن جبير أبو الحسن محمد، رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروفة برحلة ابن جبير، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1987، ص 258-259.

[11]- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص 778.

[12]- عز الدين عمر أحمد موسى، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ط 01، دار الشروق، بيروت، 1983، ص 16.

-هناك من العلماء المشارقة الذين دخلوا بلاد المغرب استجابة لطلب حكام المغرب والأندلس، فقد حرص القائمون على أمور الدولة على استقدام المشارقة من العلماء والفقهاء والأدباء والأطباء إلى حواضرهم وبلاطاتهم.[13]

-نظرا لعظم شهرة البعض منهم في مجالات معينة كاتبهم ملوك المغاربة وحثوهم على الوفادة عليهم وأغروهم بالمناصب والأموال من أجل المكوث في المغرب والسكن فيه.[14]

-وممن سجلت المصادر من العلماء التجار المشارقة قدومهم على بلاد المغرب والأندلس أبو نصر النيسابوري، [15] الذي استفاد منه أهل المغرب، ولا سيما القاضي عياض السبتي الذي التقاه في مدينة سبتة وأخذ عنه الأحاديث وأجازه جميع رواياته، قال القاضي عياض: وحدثني بحكايات وفوائد، وحدثني بأمالي الشيخ أبي بكر أحمد بن محمد بن خلف الشيرازي سماعا منه.[16]

-تعرض بعض الكبار العلماء في المغرب إلى مضايقات مما دفعتهم إلى الإرتحال والبحث عن بلدان تنعم بالاستقرار السياسي.[17]

-الشهرة والحظوة وتحصيل الأموال في بلاطات الحكام، فكثر من العلماء الوافدين من المغاربة قادهم شغفهم وراء المناصب وحب الشهرة.[18]

---

[13]- عبد الواحد ذنون طه، الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق، ط 01، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2008، ص 15.

[14]- المصدر السابق، ص 15.

[15]- إبن الأبار القضاعي أبو عبد الله محمد، التكملة لكتاب الصلة، ج 04، تحقيق عبد السلام هرَّاس، مكتبة البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، 1415هـ/ 1995م، ص 226.

[16]- القاضي عياض أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي، الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق ماهر زهير جراد، ط 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982م، ص 209.

[17]- المصدر السابق، ص 210.

[18]- شمس الدين احمد بن بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج 01، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ص 226.

-تدهور الأوضاع السياسية لبلاد المغرب مما دفع إلى الهجرة والبحث عن أماكن للاستقرار لكن على إختلاف دوافعهم إلا أنه واجه المرتحلون عدة مشاق وصعوبات سواء كانت الرحلة برا أو بحرا، من ذلك تعرض قطاع الطرق لركب الحجيج ونهبها[19].

-إلقاء الضوء على الوضع الجغرافي والنشاط الثقافي والتجاري لأوضاع البلدان إضافة إلى الرسوم الدينية والنواحي الإجتماعية، كما تمنح الدارسين في النواحي المختلفة ما يسعون وراءه من معلومات فكثر الأخذ منها وعظمت العناية بها.[20]

-الكشف عن نصوص مجهولة للكتاب ورحالة عرب ومسلمين جابوا العالم ودونوا يومياتهم وانطباعاتهم ونقلوا صورا لما شاهدوه وخبروه في أقاليمه، إضافة إلى تتبع ملامح الحركة العلمية والصناعية وتطور العمران ومظاهر العصر ممثلة في التطور الحديث في نمط العيش والبناء والاجتماع.[21]

-الرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط وإنما أيضا من باب طلب العلم وإستلهام التجارب، وكذلك الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر والذي تشكل عن طريق الرحلة وانتباهات الرحالة التي ميزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار.[22]

[19]– ابن خلكان، مصدر سابق، ج 1 ، ص227 .

[20]– عبد الواحد ذ نون طه ، مرجع سابق، ص 18.

[21]– عبد اللطيف الصعيدي، مرجع سابق ص 21.

[22]– ابن الأبار ، مصدر سابق، ج 4، ص230.

المبحث الثاني: أنواع الرحلة العلمية وهدفها

باحث الحج: الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام فرضه الله على المسلمين في الجاهلية وأقره الإسلام بعد تطهير الكعبة من الأصنام وهو واجب إلزامي على المسلم ما لم يعوقه عائق ضعف صحه أو قلة مال.[23]

حرص المسلمون كل الحرص على أداء مناسكه وذلك رغم مشاقه ومصاعبه وبعد المسافة للوصول إلى البقاع المقدسة بالحجاز مقصد المسلمين في العالم وذلك ما أكد عليه ابن عباد الرندي في إحدى رسائله حيث يقول: "المشي إلى الحج في هذه الأزمنة مما يعظم حرص الناس عليه وتميل نفوسهم إليه وتؤثرون المشقة والقلة والغربة اللازمة له على الراحة والجدة والإقامة[24] وقوله تعالى:"وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلحَجِّ يَأتُوكَ رِجَالا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيق" [سورة الحج، الآية 27]، وكان الحجاج من عدة فئات من المجتمع من لهم القدرة على إقامة ركن الحج وخاصة من الطلبة والعلماء والذين كان هدفهم من رحلة الحج أبعد من الحج نفسه، حيث توفر لهم بعد قضاء المناسك والسياحة في الحجاز لقاء العلماء والاختلاط بهم وتبادل المعارف معهم والأخذ عنهم والاستفادة من علومهم.[25]

كما كانت قافلة الحج عند مرورها بمصر ذهابا وإيابا توفر للطلاب والعلماء فرص الالتقاء بالمشايخ والفقهاء وأعيان المصريين من ذاع صيتهم في المشرق، ويتم التبادل الثقافي والعلمي وعند عودة العلماء من الحج والطلبة كانت تنشر أخبار علماء مكة مما كان يرغب الطلبة أكثر في الإرتحال إليها.[26]

---

[23]– حسين نصار، أدب الرحلة، ط 01، دار نويا للطباعة، القاهرة، 1991، ص 20.

[24]– مصدر نفسه، ص 21.

[25]– الفلصادي علي بن محمد، رحلة الفلصادي تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب، تحقيق: محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1988، ص 136.

[26]– أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ج 03، تحقيق: محمد البقاعي، ط 01، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1988، ص ص 4–5.

ومن هنا نجد أن مرحلة الحج كانت طريقة لتسهيل عملية الاتصال والأخذ والعطاء العلمي والثقافي إضافة إلى معرفة أهم الأحداث والمستجدات العلمية الحاصلة في بقاع العالم، كما أنها تساعد على معرفة العلماء شخصيا بعدما كانوا يتعارفون عن طريق المراسلات والمؤلفات إضافة إلى التحصيل العلمي بمعرفة أفكار وآراء علماء مكة ومن هنا تكمن أهمية رحلة الحج في المجال الثقافي.

الرحلة في طلب العلم:

لقد كان لموقف الإسلام من العلم والحث على طلبه أثر في إهتمام المسلمين بالرحلات العلمية فقد حث الإسلام على العلم والسعي في طلبه وتحصيله حتى روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من سلك طريقا يطلب فيه علما سهل الله به طريقا إلى الجنة"[27]، وقال أيضا: "لأن تغدوا فتتعلم بابا من العلم خير من أن تصلي مائة ركعة"، [28] وقال: "ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع"،[29] وانطلاقا من هذا تبين حرص العلماء والطلبة على اكتساب المعارف والتزود بالعلم وتحمل ضروب المشقات وألوان التعب في سبيل ذلك ولم يدخر المسلمون أية وسيلة من الوسائل التي تعينهم في بلوغ ذلك الهدف السامي، ومن هذه الوسائل كانت الرحلات العلمية والتي اعتبرها علماء المسلمين ضرورة يجب أن يسلكها طالب العلم في حياته العلمية وهكذا يتبين أن الرحلة في طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم.

وتكلم ابن خلدون عن الرحلة في طلب العلم فقال: "الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال من التعلم والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة إلا

---

[27]– أبي الدرداء، صحيح سنن أبن ماجه، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم 222، مكتبة المعارف، الرياض، ط 01، 1997، ج 01، ص 92.

[28]– ذر بن حبيش، صحيح سنن أبن ماجه، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم 225، مكتبة المعارف، الرياض، ط 01، 1997، ج 01، ص 93.

[29]– ابن خلدون، مصدر سابق، ص 541.

أن حصول الملكات المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى روحا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة ورسوخها، [30] وعلى أساس ذلك أدرك الطلبة أهمية الرحلة فكانوا لا يكتفون بما يتلقونه من العلوم في مدنهم بل يجيبون مختلف البلدان لتلقي العلم من أكابر العلماء متحملين في ذلك عناء السفر.

لهذا تعد الرحلة في طلب العلم شرط أساسي في التعلم، ولابد منها، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون التحصيل العلمي أفضل وأرسخ.

الرحلة في طلب الحديث: كان الحديث النبوي هو المصدر الثاني للإسلام وقد أعطاه العلماء غايه اهتمامهم وبذلوا من أجل الحديث وأسانيده كل ما في وسعهم، حتى رحلوا المسافات البعيدة على بعد الشقة وعظم المشقة طلبا للحديث وبحثا عن أسانيده، بل في بعض الأحيان عن إسناد الحديث الواحد إمتثالا لأمر الله تعالى: "فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ" [سورة التوبة، الآية 122]، وقد كانت الرحلة في طلب الحديث من لوازم طريقة المحدثين ومنهجهم في التحصيل العلمي قال يحيى ابن معين: "أربعة لا تؤنس منهم رشدا، حارس الدرب ومنادي القاضي وابن المحدث ورجل يكتب في بلده ولا يرحل في طلب الحديث".[31]

نلاحظ أن الرحلة في طلب الحديث قد اتخذت شكلا آخر إذ امتازت بتعدد رحلة المحدث إلى المدن والأمصار، بل تكررت رحلاته إلى المدينة التي زارها من قبل فكانت رحله المحدث تبعا لضرورة التحصيل العلمي والتي ظهرت فيما بعد على شكل مذكرات اتخذت اشكالا متعددة مثل كتب المعاجم والمشيخات والأنساب والوفيات، وقد أولى الدين الإسلامي الحنيف نشر العلم عنايه الخاصة فحض على طلبه ونشره حيث رؤيت الكثير من الأحاديث الشريفة تدعوا إلى السعي وإلى تحمل المشاق فعن أبي أمامه الباهلي أن النبي

[30]– ابن خلدون ، مصدر سابق، ص 104.

[31]– أحمد بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي، الرحلة في طلب الحديث، تحقيق: نور الدين كثر، ط 01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1975، ص ص 71–72.

صلى الله عليه وسلم قال: "عليكم بهذا العلم قبل أن يقبض وقبل أن يرفع"، ثم قال: "العالم والمتعلم شريكان في الأجر ولا خير في سائر الناس بعدي وجمع بين إصبعه والسبابة التي تلي الابهام".[32]

وفي رواية أن العالم والمتعلم شريكان في الأجر ولا خير في سائر الناس بعده، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من رجل يحفظ علما فيكتمه إلا أوتي به يوم القيامة ملجم بلجام من نار".[33]

ويبدو لنا من خلال الأحاديث النبوية مدى حرص الصحابة على طلب العلم خاصه الحديث الشريف فتداولوه بينهم وتذاكروه، وكان كل صحابي مدرسة كاملة بما يحمله من علم ومعرفة، أضف إلى ذلك أنهم كانوا سببا في انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية التي كانت معظمها تحت قيادة الصحابة، حيث استوطنت أعداد كثيرة منهم في الأمصار المفتوحة والمدن القديمة، وقد وزعهم المؤرخ ابن سعد البصري من خلال تراجم الصحابة الذين استوطنوا المدن والأقاليم الإسلامية فهم موزعون كالتالي:البصرة (150)- الكوفة (147)- الشام (114)- مصر (32)،[34] الجزيرة (05)- خراسان (06)- اليمن (28)- الطائف (43).[35]

ويمكننا أن نشير هنا إلى أن الحديث الشريف كان وما زال يشكل ركنا مهما من أركان الشريعة الإسلامية فهو الذي يفسر الكثير من النصوص القرآنية ويكملها لذلك احتاج الصحابة إلى تتبع الحديث لحل الاشكالات والمسائل المستحدثة وللرد على استفسارات المسلمين ممن أدرك عصر النبوة ومن لم يدركها لذلك دعت الحاجة للرحلة في طلب

---

[32]- ابن عبد البر القرطبي، مصدر سابق، ج 01، ص 34.

[33]- أبو هريرة، صحيح سنن ابن ماجه، باب من يسأل عن علم فيكتمه، رقم: 261، مكتبة المعارف، الرياض، ط 01، 1997، ج 01، ص 101.

[34]- محمد بن سعيد بن سبع الزهري، كتاب الطبقات الكبرى، ج 05، تحقيق: علي محمد عمر، ط 01، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2001، ص 530.

[35]- المصدر السابق، ج 07، ص ص 523-365.

الحديث إلى مواطن الصحابة الجديدة وهكذا رحل سعيد بن المسيب (34هـ) حيث قال: "إن كنت لأسير الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد".[36]

ومن يرجع إلى تراجم الصحابة المكثرين من الحديث والتابعين المشهورين كعروة والزبير والزهري يلمس ما بذله المحدثون في تلك الفترة من جهد في سبيل رواية الحديث الشريف.

موقف العلماء من الرحلة:

على الرغم من بدء الرحلة في طلب الحديث في عصور متقدمة منذ عصر الصحابة والتابعين إلا أن بعض المحدثين يرى عدم وجود الرحلة في طلب الحديث ويرون أن النهاية المحصلة للرحلة بضعة أحاديث قد يكون أكثرها من الروايات الضعيفة وقاعدتها قليلة لا تطلب عنها تلك الرحلة الشاقة، وقطع آلاف الأميال وبأقسى الظروف، وربما كان فقر بعض المعارضين سببا آخر في عدم ارتحالهم ويرى الرامهرمزي (260-360هـ) أنه قيل لسفيان الثوري لما لم ترحل إلى الزهري؟ قال: "لم تكن عندي دراهم ولكن قد كفانا معمر الزهري وكفانا ابن جريج عطاء".[37]

ونقل الرامهرمزي رأي من لا يرى الارتحال فقال على لسان بعضهم، قال بعض متأخري الفقهاء بذم أهل الرحلة في فصل من الكلام له نبغوا فعابوا الناظرين المميزين وبدعوهم إلى الرأي والكلام نسبوهم وجعلوا العلم الواجب طلبه الدوران والحولان في البلدان لالتماس خير لا يفيد طائلا وأثر لا يورث نفعا فأسهروا ليلهم وأظمأوا نهارهم، واغتربوا عن بلادهم وضيعوا ما وجب عليهم من حق خلفائهم فحرموا لذه الدنيا واستحبوا العقاب في الآخرة.[38]

---

[36]- الخطيب البغدادي، مصدر سابق، ص 128.

[37]- حسين بن عبد الرحمن الرامهرمزي، المحدث الفاضل بين الراوي والواعي، تحقيق: محمد عجاج الخطيب، ط 03، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1984، ص 236.

[38]- المصدر السابق، ص ص 216-217.

وقد رد عليهم معارضيهم واصفين من لا يرى الرحلة واجبة بقوله: "تهيبوا كدَّ الطلب ومعالجة السفر وبعلوا"،[39] بحفظ الآثار ومعرفه الرجال واختلفت عليهم طرائق الأسانيد ووجوه الجرح والتعديل فآثروا البدعة واستلذوا الراحة... واقتصروا على اتباع صحف درسوها، فإن حفظ أحدهم من السنن شيئا فمن صحيفه مبتاعة كفاه غيره مؤونة جمعه وشرحه وبنوا به من غير رواية لها ولا دراية بوزن من نقلها.[40]

نشير هنا إلى أن هناك من لا يرى ضرورة الرحلة ووصفها بأنها تعب ليس ورائها أرب، ولا شك أن هذا الرأي لا يقوى على مناهضة رأي القائلين بضرورة الرحلة لتحصيل الحديث من سماعه والوقوف على حاله فكان أنصار الرحلة هم الجمهور، وكان أمير المؤمنين في الحديث شعبة ابن الحجاج يرى أن الرحلة يجب أن يكون هدفها الأول هو سماع الحديث على أصوله وإن خرجت عن هذا الهدف فإن الرحلة فقدت هدفها ودخل الرياء في سعي الراحل، وفي هذا يقول لا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يطلب التعالي في الإسناد.[41]

بواعث الرحلة:

تبين مما تقدم أن الارتحال هو مذهب عموم المحدثين حتى ذلك قاعدة عامة لكتاب الحديث وهي حالة حضارية متميزة كانت من سمات مدرسة الحديث النبوي الشريف وقد حققت الرحلة في طلب الحديث نتائج كان لها أثر كبير في حفظ الشريعة الإسلامية وأن الرحالة المحدثين كانوا على حق فإنها ساهمت في حصيلتهم الفكرية وسعة مداركهم بعد أن أصبحت الرحلة مذهبا إذ كانت عوامل كثيرة تدفع المحدث إلى الرحيل طلبا للحديث وشوقا لتلقي المعرفة وأصبحت الرحلة مقياسا لمكانة المحدث حتى أطلق النقاد والمؤرخون عليهم عبارات فقالوا: ارتحل وهو إبن خمسة عشرة وإبن عشرين"، أو "رحل وتعب– له رحله واسعة،

[39]– البعل: هو الدهش عند الروع، انظر ابن منظور مصدر سابق، ج 01، ص 238.

[40]– ابن خلدون، مصدر سابق، ص 218.

[41]– مصدر نفسه ، ص 236.

بل ساقوا في شأن الرحلة وصاحبها الأمثال، فقالوا: تضرب إليه أباط المطي... أو أكباد المطي، كما أطلقوا على كبار المحدثين لقب الرحالة، والرحال والجوال أو طواف الأقاليم.[42]ونشير هنا أن المحدثون كانوا يرحلون ويقطعون الفيافي والقفار ويجيبون البلدان شرقا وغربا في طلب حديث واحد لتسمعه من راوية، ومنهم من يكون الباحث له على رحلته طلب ذلك الحديث دون سواه، ومنهم من يقرن بتلك الرغبة سماعه من ذلك الراوي بعينه، إما لثقته فيه وإما لعلو إسناده، فانبعثت العزائم إلى تحصيله فكان اعتمادهم أولا على الحفظ والضبط من الصدور غير مكتفين بما يكتبونه محافظة على هذا العلم كحفظهم لكتاب الله سبحانه وتعالى.[43]

وبالرجوع إلى أسانيد الأحاديث نجد أثر الرحلة جليا إذا ما تناولنا أي إسناد منها ودرسنا تاريخ رواتبه نجد أنهم ينتمون إلى أكثر من وطن، بل ربما وجدنا كل واحد منهم من بلده جمعت الرحلة في طلب الحديث شتاتهم وقويت ما بعد بينهم حتى تسللوا في قرن واحد في سند الحديث الواحد.

أهم بواعث الرحلة ملخصة في النقاط التالية:

1 -طلب الأسانيد العالية:

قال الخطيب البغدادي: المقصود من الرحلة أمران، أحدهما تحصيل علو الاسناد وقدم السماع،[44] وقال النووي: وطلب العلو سنة ولهذا استحبت الرحلة، [45] والعلو هو قلة عدد الوسائط في سند الحديث مع إتصال السند، ويحصل العلو بأن يسمع المحدث حديثا من راوٍ عن شيخ حَيْ فيذهب إلى ذلك الشيخ ويسمع منه، قيل لأحمد ابن حنبل: أيرحل الرجل في

---

[42]– صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه، ط 15، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1984، ص ص 55-56.

[43]– مصطفى بن عبد الله المشهور بحاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج 02، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ص 334.

[44]– جلال الدين السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، ج 02، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح بن عويقة، دار الكتب العلمية، لبنان، ص 142.

[45]– مصدر نفسه، ص 160.

طلب العلو؟ فقال: "بلى والله شديدا لقد كان علقمة والأسود يبلغهما الحديث عن عمر رضي الله عنه، فلا يقنعهما حتى يخرجا إلى عمر فيسمعانه منه".[46]

ونشير هنا أن للعلو فائدة عظيمة هو أنه يبعد الإسناد من الخلل لأن كل رجل من رجاله يحتمل أن يقع من جهته خلل في النقل، فإذا قلت الوسائط يقل الخطأ والخلل، فيكون علو السند قوة للحديث.

ويرى البعض أن النزول في الإسناد أفضل لأنه يجب على الراوي أن يجتهد في متن الحديث وتأويله وفي الناقل وتعديله، وكلما زاد الاجتهاد زاد صاحبه ثوابا، وهذا مذهب ضعيف، وقال آخرون: التعالي في الاسناد مسقط لبعض الاجتهاد وسقوط الاجتهاد كلما أمكن أسلم.[47]

وينقسم الإسناد العالي إلى قسمين:

الإسناد العالي المطلق: وهو ما قرب رجاله إلى سنده من رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب قله عدد الرواة إذا قيسوا بسند آخر، وهذا النوع من العلو من أجل الأسانيد شريطة أن يكون إسنادا صحيحا نظيفا رجاله من الثقات.[48]

الإسناد العالي النسبي: فهو ما قارب رجال سنده من إمام من أئمة الحديث كالأعمش وبن جريج ومالك وشعبة وغيرهم مع صحة الإسناد إليه، أو قربوا من كتاب من الكتب المعتمدة المشهورة كالكتب السنة، الموطأ والرسالة والأم للشافعي... وغيرها، وإنما سمي نسبيا لأن العلو فيه إضافي لا حقيقي.[49]

وقد جعل ابن حجر الإسناد العالي النسبي على أربعه أنواع: الموافقة والبدل والمساواة والمصافحة.[50]

---

[46]– ابن الصلاح، مصدر سابق، ص 358.

[47]– الرامهرمزي، مصدر سابق، ص 216.

[48]– السيوطي، مصدر سابق، ص 162.

[49]– ابن حجر، مصدر سابق، ص 60.

[50]– صبحي الفاتح، مصدر سابق، ص 238.

فالموافقة هي الوصول إلى شيخ أحد المصنفين من غير طريق، والبدل هو الوصول إلى شيخ شيخه، والمساواة هي ا سرتواء عدد الإسناد من الراوي إلى آخر مع إسناد أحد المصنفين... والمصافحة هي الاستواء مع تلميذ ذلك المصنف.[51]

2- البحث عن أحوال الرواة من حيث العدالة والحفظ:

من فوائد الرحلة أن يتعرف طالب الحديث على أحوال الرواة والشيوخ، فهي تقرب تلك الأحوال للرحالة فيستطلع أحوال الشيوخ ومدى توثيق أهل بلدهم، حيث يقول الخطيب البغدادي: "كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى سمعته وإلى صلاته وإلى حاله ثم يأخذون عنه"،[52] و روى الربيع بن أنس عن أبو العالية قال: "كنا إذا أتينا الرجل لنأخذ عنه نظرنا إلى الصلاة فإن أحسن الصلاة أخذنا عنه وإن أساء لم نأخذ عنه"، [53] وقال شعبة: "انظروا عمن تكتبون".[54]

ويبدو لنا من نص الخطيب البغدادي أن الوقوف على أحوال الرواة وأخلاقهم لا يمكن أن يُلم بها من كان في بلده ولم يرحل إليهم وهي من شروط حمل الحديث الشريف وروايته.

3- طلب الحديث والتثبت في صحته:

ليس هناك من شك في أن الرحلة إلى العلماء تؤدي إلى الإستزاد ة من الحديث وحفظ ما لم يكن موجود عند علماء بلده وأهل مصره، ولعل هذا أهم بواعث الرحلة، وقد ضرب رجال الحديث في ذلك مثالا عاليا وبلغوا شأنا عزيز المثال حتى رحلوا في طلب الحديث الواحد، قال سعيد بن المسيب: "كنت لأسير الليالي والأيام من أجل الحديث الواحد"، [55]

---

[51]- مصدر نفسه، ص 238.

[52]- ابن الصلاح، مصدر سابق، ص 231.

[53]- الرامهر مزي، مصدر سابق، ص 40.

[54]- المصدر نفسه، ص 40.

[55]- صبحي الصالح، مصدر سابق، ص 54.

وارتحل ابن الديلمي من فلسطين إلى الطائف ليسأل عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنه عن حديث بلغه عنه.[56]

ونشير هنا أن فضل الرحلة تكمن في معرفة سيرة الرواة في بلدانهم ويعلم قوتهم من ضعفهم، فهذا شعبة ابن الحجاج يرحل من أجل إسناد لحديث فضل الوضوء والذكر فتبين له أن أحد رواة الحديث مطعون فيه فقال متأسفا: "دمرَّ علي هذا الحديث ولو صح لي هذا الحديث كان أحب إلي من أهلي ومالي ومن الدنيا كلها".[57]

المبحث الثالث: أهمية الرحلة

1 -فوائد الرحلة: للرحلة فوائد كثيرة نلخصها بما يلي

الرحلة تزيد من كمال المتعلم وتحصيله:

وذلك بلقاء أهل العلم ونقاد المشايخ فإن ذلك يفيده في تفسير الإصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في الملكات ويصحح معارفهم ويميزها عن سواها مع تقويه ملكته بالمباشرة والتلقين وزيادة المشيخة لمن يسر الله عليه العلم والدراسة، حيث يقول ابن خلدون في مقدمته [58]: "فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"، فمن المعروف أن للإمام الشافعي مذهبان المذهب القديم والمذهب الجديد، والمذهب الجديد يختلف في مسائل جوهرية كثيرة عن القديم الذي صار إليه بعد رحلته إلى العراق حيث لقي الإمام محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة ولقي آخرين من تلامذة أبي حنيفة ولما انتقل الشافعي إلى مصر أسس مذهبه الجديد هناك وعليه لابد من الوقوف على فقه الشافعي في رحلته إلى العراق ومصر.[59]

توحيد نصوص والتشريعات:

---

[56]– الخطيب البغدادي، مصدر سابق، ص 130.

[57]– الخطيب البغدادي، مصدر سابق، ص 152.

[58]– السيوطي،مصدر سابق، ج 02، ص 145.

[59]– الخطيب البغدادي، مصدر سابق، ص 23.

من فوائد الرحلة في طلب الحديث توحيد النصوص والتشريعات من مختلف أقطار العالم الإسلامي وضبطها وجمعها واستنباط من مصادرها فقد كان لهذه الرحلات أثر في توحيد النصوص الأحاديث ونقلها من طابعها الاقليمي الأصلي إلى الطابع العام المشترك، ولذلك تشابهت الروايات المتماثلة في الكتب الصحيحة حول الموضوع إلا في بعض الفروق الدقيقة التي لم يقف المحدثين الشبه عليها، وهذا سبب تلاقي الرواة حين يرتحل بعضهم لبعض ويأخذ بعضهم من بعض.[60]

ونشير هنا أن لولا الرحلة في طلب الحديث لوجد طابع فكري محلي في كل مدينة من المدن الإسلامية بسبب العزلة العلمية لكن الروح الواسعة التي تحلى بها العلماء دفعتهم إلى الترحال للأفاق البعيدة وأخذ العلم من شتى المراكز الفكرية في العالم الاسلامي.

3- الحصيلة الثقافية الواسعة : إن هذا الكم الكبير من الأحاديث والكتب المصنفة في هذا المجال ما كان ليتم بالصورة الحالية ويكتمل لولا رحلات المحدثين شرقا وغربا من الأندلس إلى حدود الصين ولو استعرضنا فهارس الكتب والمخطوطات والكتب القديمة المخصصة للفهارس (كفهرسة ابن النديم، وكشف الظنون، والاعلان بالتوبيخ للسخاوي....) وغيرها لرأينا المكانة المرموقة التي وصل لها علم الحديث، ويقينا أن الرحلات كان لها عظيم الأثر في التحصيل العلمي.[61]

4- المتعة النفسية التي يحصل عليها الرحالة : إن الرحلة في طلب الحديث رغم صعوبتها وقسوة ظروفها تشعر صاحبها بالمتعة النفسية ويستطلع أحوال البلاد والمناهل ومشاهدة عجائب البلدان واختلاف الألسن والمأكل والمشرب وما يحصل عليه من رياضة ذهنية وبدنية إضافة إلى الأجر الذي يحصل عليه من الله سبحانه وتعالى وهو يدون أحاديث

[60]- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ومدينة السلام، ج 13، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطاء، ط 02، دار الكتب العلمية، لبنان، 2004، ص 118.

[61]- الخطيب البغدادي، مصدر سابق، ص 25.

الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ويتحمل المشاق عن طيب نفس كما يظهر لنا من استعراض حياه الرحالة وأحوالهم أثناء رحلاتهم.[62]

5- المتاجرة بالحديث: إن الرحلة للمتاجرة بالحديث الشريف رفضها أكثر المحدثين، فالحديث ليس سلعة تباع وتشترى والغالب على الرحالة إنما يطلبون الحديث للمعرفة، وإنما تأتي المتاجرة كنتيجة وفائدة ثانوية وليست هدفا، إذ روى بعض المحدثين أنهم أخذوا الأجرة على الحديث من باب سد العوز والفقر لذلك المحدث وهم قله قياسا للجمع الغفير من المحدثين الذين يرون أن أخذ الأجرة على الحديث من قلة المروءة، ثم إن من أخذ الأجرة على الحديث إنما كان يشكو ضيق اليد، ومن هؤلاء ابن نعيم الفاضل ابن دكين (ت213هـ)، قال الذهبي: "كان أبو نعيم يأخذ على الحديث شيئا لفقره"، [63] وقال علي ابن خشرم سمعت أبا نعيم يقول: "يلومونني على الأخذ وفي بيتي ثلاثة عشر نفسا وما في بيتي رغيف"،[64] ونلاحظ هنا ان المحدثين الذين كانوا يتاجرون بالحديث قلة بسبب الفقر وقد وردت أخبار كثيرة عكس ذلك وشددت على من يأخذ أجرا على الحديث.

6- توثيق العلاقات بين بلدان العالم الإسلامي:

أثرت الرحلات الحديثة في توثيق العلاقات مع بلدان العالم الاسلامي مثلها مثل الرحلات الجغرافية والرحلات التجارية فإنها تجعل الأقطار الإسلامية قطرا واحد حيث يشعر المسلم بالوحدة الحقيقية التي يسعى إليها الإسلام فقد إنصهرت بلدان العالم الاسلامي في بوتقة واحدة وهذه الوحدة في الشعور قد قوتها الرحلات الحديثة إذ كان العالم الإسلامي أشبه بالمدينة الواحدة فالطواف بين الأقاليم الإسلامية لا تعوقه السدود والحدود ولقد لخص الشافعي فوائد الرحلة حيث قال:

---

[62]- مصدر نفسه، ص 26.

[63]- شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 10، تحقيق: شعيب الأرنؤوطي، ط 01، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1982، ص 152.

[64]- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج 01، ط، دائرة المعارف النظامية، الهند، 1325، ص 285.

تغرب في الأوطان في طلب العلا وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفـرج هـــم واكتســـاب معيشـــة وعلم وآداب وصحبـة ماجـــد [65]

أداب الرحلة:

هناك أصول ينبغي مراعاتها حتى تؤتي الرحلة ثمارها ومنها:

– أن يسمع الطالب من شيوخ بلده أولا ثم يرحل إلى الشيوخ في الأمصار الأخرى، فيحبذ الخطيب البغدادي أن يبدأ ببلده فلا ينبغي أن يترك من في بلده من الرواة أحدا إلا ويكتب عنه ما يسر من الأحاديث وإن قلت.[66]

– حسن اختيار أماكن الرحلة بأن تكون عامرة بالعلماء والفضلاء ممن يستفيد منهم ويستحب للطالب استشاره شيوخه، مثال: سئل أحمد بن حنبل عمن ترى أن يكتب الحديث؟ فقال له: "أخرج إلى أحمد بن يوسف فإنه شيخ الإسلام".[67]

– أن يهتم بكثرة المادة العلمية ويكثر من المسموع مما ليس عنده من الأسانيد والمنقول ويقدم ذلك على الاستكثار من الأساتذة.[68]

– كما يستحب لطالب الرحلة أن يتخير الرفقة الصالحة وأن يداوم على الطاعات والعبادات وأن يكون صبورا على متاعب السفر، وبالتأكيد أن للرحلة الأثر الطيب في النفس إذ يهذبها ويكسبها فضائل تسموا بها.[69]

معاناة الرحلة:

لم تكن الرحلة في طلب الحديث في عصورها الزاهدة سهله ميسرة، بل كان رواة الحديث يتجشمون العناء الكبير والمشقة الكبيرة أثناء رحلاتهم التي لم تثنيها تلك الصعوبات

---

[65]– عبد الله بن سعد اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقضان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ج 02، ط 01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1998، ص 66.

[66]– السيوطي،مصدر سابق، ج 02، ص 142.

[67]– الخطيب البغدادي، مصدر سابق، ص 92.

[68]– مصدر سابق ، ص 29.

[69]– مصدر نفسه ، ص 31.

أو تقف حائلا دونها، ومن هذه الصعوبات التي ذكرها المحدثون في مذكراتهم عبد الرحمن ابن أبي حاتم الرازي، قال: "سمعت أبي يقول: أول سنة خرجت في طلب الحديث أقمت سبع سنين أحصيت ما مشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ، لم أزل أحصي مشيي لما زاد على ألف فرسخ تركته وسرت من الكوفة إلى بغداد فما أحصي كم مرة".[70]

كما وقفنا على بعض معاناه الإمام أحمد ابن حنبل في إحدى رحلاته فقد رهن نعله عند خباز على طعام أخذه منه عند خروجه من اليمن، وأكرى نفسه من حمالين عند خروجه وعرض عليه عبد الرزاق ابن همام دراهم صالحه فلم يقبلها.[71]

وقد سجل بعض الرواة ما لاقاه في رحلته إلى الأمصار بأبيات الشعر مما يدل على أنهم كانوا يتمتعون بقريحة شعرية، وذكر الرامهرمزي عن شيخ له في الشعر حيث قال:

أقبلت أهوي على حيزوم طاويةفي لجة أليم الري على سكن
حتى أتيت أمام الناس كلهمفي الدين والعلم والآثار والسنن
أبغي به الله لا الدنيا وزخرفهاومن يتغنى بدين الله لا يهن
يا لذة العيش لما قلت حدثناعوف وبشر عن الشعبي والحسن[72]

وقال رجل يدعى الحطيم في سفيان بن عيينة وكان مع هارون ابن معروف:

سيري نجاء وقال الله من عطب حتى تلاقي بعد البيت سفيانا
شيخ الأنام ومن جلت مناقبه لاقى الرجال وحاز العلم أزمانا
حوى البيان وفهما عاليا عجبا إذا ينص حديثا نص برهانا
قد زانه الله أن دان الرجال له فقد يراه رواة العلم ريحانا
تر الكهول جميعا عند مشهده مستنصتيتن وشيخانا ونسيانا
يضم عمرا إلى الزهري بسنده وبعد عمر إلى الزهري صفوانا

[70]– الخطيب البغدادي، مصدر سابق، ص 75.
[71]– الذهبي،مصدر سابق، ج 11، ص 206.
[72]– الرامهر مزي، مصدر سابق، ص 228.

وعبـدة وعبيـد الله ضماهـما إلى السبعي أيضا وابن جدعانا
فعنهم عن رسول الله يوسعنا علمـا وحكـما وتأويلا وتبيـانا

أهمية الرحلة:

لقد كان للرحلة أهميه كبرى بالنسبة للرحالة فهي تعد أهم الوسائل في تحقيق أغراضهم وهي تعتبر عونا للمؤرخ والجغرافي وذلك لأن أغلب الرحالة سجلوا مشاهداتهم ومعاينتهم للأقاليم المختلفة التي وطئوها، وحفظت لنا كتب التراجم والتاريخ أسماء رحالة مشارقة ومغاربة وأندلسيين لم يعثر على رحلتهم أو إنتاجهم، ومنهم من قام بتدوينها ولهذه الرحلات المدونة والمحفوظة الفضل في إمدادنا بمعلومات قيمه قد لا نجدها في كتب التاريخ المعاصر من حيث الوصف الدقيق للمدن ونمط الحياة فيها، فأثنوا على الحسن من عاداتها ودعوا إلى البعد عن الشاذ منها كما نوهوا إلى أسماء الشيوخ مع تسجيل إجازاتهم كما ذكروا أهم المصنفات التي اطلعوا عليها وأهم المشاهد المقدسة.[73]

كما كانت الرحلة وسيلة للتزود بالعلم والإلتقاء بالعلماء في شتى مراكز الحضارة الإسلامية، كما كان من بينهم رجال شغفوا بالطواف خاصة المغاربة والأندلسيين الذين رغبوا في أداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة وارتياد مراكز العلم في المشرق بعد أن تجاوزوا سن الطلب ووصلوا إلى سن تؤهلهم لمجالسة كبار العلماء للأخذ والعطاء.[74]

أدت الرحلة العلمية إلى زيادة التبادل العلمي القائم على الإلتقاء بكبار العلماء للأخذ عنهم والحصول على إجازتهم العلمية في المراكز التي وصلوا إليها والتي تعد ينابيع فياضة بالعلم والمعرفة.[75]

---

[73]– عواطف يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن، دراسة تحليلية مقارنة، مكتبة فهد الوطنية، 1417هـ– 1996م، ص 94.

[74]– عواطف يوسف نواب ، مرجع سابق، ص 94.

[75]– مرجع نفسه، ص 95.

ومن هنا نلاحظ أن الرحالة أصبحوا رسائل علم ومعرفة وحلقه إتصال وتبادل فكري وعلمي بين المشرق والمغرب وأدى هذا التلاقح والتواصل لأهل المغرب النهل من علوم المشرق على يدي هؤلاء الرحالة الذين قاموا بتدريس تلك العلوم وخاصة علوم الحديث وملحقاته.

كما انفردت الرحلة بتسجيل الحياة الإجتماعية والاقتصادية والتي أغفل ذكرها بعض المؤرخون، واقتصروا على التسجيل الناحية السياسية والعلمية، وأسهمت هذه الرحلات أيضا في معرفة أهم المناطق النائية وأحوالها فقد شكلت معلوماتهم مادة علمية غزيرة.[76]
كما شكلت الرحلة مادة تاريخية غنية بالأحداث والوقائع والتجارب اليومية والأزمات السياسية والفتن الداخلية والمعارك الحربية والتدابير الاجتماعية والاقتصادية، [77] إضافة إلى التسلح بالنظر الدقيق والرؤية الموضوعية للأشياء مثل التفكير في خلق السماوات والأرض حتى نستخلص الدروس والعبر الحقيقية المتجردة والقران يدعونا إلى ذلك في قوله تعالى: "قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱل ۡأرض وَمَا تُغ ۡنِي ٱل ۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَو ۡم لَّا يُؤ ۡمِنُونَ" [سورة يونس، الآية 101].

ونشير هنا أن كتب الرحلة تعد من أهم الكتب التي أشارت بوضوح للجانب الثقافي والعلمي مع الكشف عن الأصول والمنابع التي استقى الرحالة علومهم منها خاصه المحدثين وعلى ضوء ذلك تعد الرحلة من أهم المصادر التي تكلمت عن الحركة العلمية في الشرق والغرب.

[76]– محمد ابن شقرون، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة الى قسنطينة والزاب، دار الغرب الإسلامي، الرباط، (د. ت)، ص 44.

[77]– محمد شقرون، مصدر سابق، ص 45.

الفصل الأول:

المذهب المالكي نشأته و انتشاره

المذهب المالكي نشأته وانتشاره

يعتبر المذهب المالكي من أوسع المذاهب الإسلامية انتشارا في العالم الإسلامي، تبنى آراء فقهية وعقائدية وسياسية للإمام مالك بن أنس رحمه الله، يتبلور مذهبا واضحا ومستقلا من القرن الثاني الهجري، وصل للمغرب متأخرا حيث انتصر وأصبح له الغلبة على المذاهب الأخرى وساد وانتشر بسبب ملائمة المذهب المالكي لطبيعة المغاربة وأنه مذهب عملي مقيد بالواقع والفطرة التي كانت ميزة أهل المغرب.

المبحث الأول: نبذة عن المذهب المالكي

1- ترجمة الإمام مالك: هو عبد الله مالك بن أنس بن أبي عامر بن الحارث بن غميان بن حنبل بن عمر بن الحارث ويقال الأصبحي نسبة إلى قبيلة في اليمن، قبل عن جده أبا عامر رحمه الله على أنه صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم وروي عنه أنه شهد المغازي كلها مع النبي ما عدا بدرا، و ابنه مالك جد مالك وكنيته أبو أنس يعتبر من كبار التابعين يروي عن عائشة وعمر وطلحة وغيرهم من الصحابة، وهو أحد الأربعة الذين حملوا عثمان ابن عفان رضي الله عنه ليلا إلى قبره غسلوه ودفنوه.[1]

تضاربة الآراء حول مولد الإمام مالك بن أنس رحمه الله وكان هناك إختلاف تحديد التاريخ وأقربه هو ثلاث وتسعون للهجرة (93هـ)، أما تاريخ وفاته حدده المؤخرون سنة مائة وتسعة وسبعون للهجرة (179هـ).[2]

2- طلبه للعلم في المدينة ورأي العلماء فيه:

طلبه للعلم ونشره في المدينة: إهتم الإمام مالك رحمه الله بطلب العلم حيث اتجه الى حفظ القرآن الكريم واستطاع أن يتم ذلك كما اقترح عليه أهله أن يحضر مجالس العلماء كعمه وأخيه من قبله وهكذا بدأ يكتب العلم ويدرسه، اهتمت أمه به كثيرا في كيفيه أخذه عن العلماء.[3]

أخذ الإمام مالك رضي الله عنه العلم عن كثير من الشيوخ من بينهم وأهمهم في ذلك العصر أبو بكر بن شهاب الزهري توفي عام 125 هـ، وأبو عثمان بن ربيعة واسحاق بن عبد الله، بالإضافة إلى اعتماده كثيرا على ابن هرمز الذي هو من أهم شيوخه حيث كان معجبا به كثيرا ومحبا له مقدرا لعلمه كان يروي عنه لشده تأثره به، أخذ الإمام مالك رحمه

---

[1]- القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج 01، صححه: محمد تاوين الطبجتي، المملكة المغربية، الرباط، ص 104.

[2]- الذهبي، مصدر سابق، ج 08، ص 49.

[3]- القاضي عياض، مصدر سابق، ج 01، ص 130.

الله العلم عن عدد كبير من العلماء في عصره حتى قيل أن عددهم فاق التسعمائة (900) شيخ قام بالرواية عنهم، انتصب الإمام مالك للتدريس وهو ابن 17 سنة، أخذ عنه العديد من طلبة العلم في كل الأخطار وجاءوه من كل حدب وصوب.[1]

ولسعة علمه أصبح مالك بن أنس رحمه الله معلما لكبار الأئمه الذين عاصروه مثل الأوزاعي، ومن الذين جاءوا بعده بقليل الإمام الشافعي ويحيى ابن سعيد، حتى بعض شيوخه مثل العلماء الكبار أمثال يحيى الأنصاري ومحمد بن مسلم الزهري قد جلسوا إليه وترددوا لندواته وسمعوا منه الحديث.[2]

ثناء العلماء عليه:

نال الإمام مالك رحمه الله شهادة أهل العلم والصلاح له بالإمامة في العلم بالكتاب والسنة والتقدم في الفقه والصدق والثبات في الأمر والقول وتوثيقه وإجماع الناس عليه واقتداء الأكبر به، قال ابن هرمز لجاريته يوما من بالباب؟ فلم ترى إلا مالكا، فذكرت له ذلك فقال أدعيه فإنه عالم الناس وقيل فيه أيضا ما في على ظهرها يعني الأرض أعلم سنة ماضية ولا باقية غير مالك رحمه الله.[3]

قال جعفر الفريابي: لا أعلم أحد روى عن الأئمة ممن مات قبله بدهر طويل إلا مالك، وقال الحسن الدارقطني قال: لا أعلم أحد تقدم أو تأخر اجتمع له ما اجتمع لمالك. [4]وقال الشافعي إذا جاءك الأثر عن مالك فشد به يدك وقال: إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب، ولم يبلغ أحد في العلم مبلغ مالك لحفظه واتقانه وصيانته، ومن أراد الحديث الصحيح فعليه بمالك.[5]

---

[1]– القاضي عياض ، مصدر سابق، ص 140.

[2]– محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، ص 368.

[3] – القاضي عياض، مصدر سابق، ج 01، ص 148.

[4]– ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ج 01، تحقيق: مأمون بن محي الدين الجناني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 130.

[5]– القاضي عياض، مصدر سابق، ص 145.

وقال البهلول ابن راشد: ما رأيت انزع من مالك بن أنس بآية من كتاب الله.[1]

وقال يحيى بن معين: مالك من حجج الله على خلقه، إمام من أئمة المسلمين، مجتمع على فضله.

وقال: مالك نبل الرأي ونبل العلم أخذ المتقدمون عن مالك ووثقوه وكان صحيح الرواية.[2]

قال الشافعي: مالك أستاذي وعنه أخذت العلم وما أحد أمن عليَّ من مالك، وجعلت مالك حجه بيني وبين الله، وقال أحمد بن حنبل وهو إمام في الحديث والفقه وقدمه على الأوزاعي والثوري والليث.[3]

وقال الليث بن سعد: علم مالك تقي، علم مالك نقي، مالك أمان لمن أخذ عنه من الأنام، وقال ابن المبارك: لو قيل لي إختر للأمة إماما لأخترت لها مالكا.[4]

ونشير هنا أن معظم أراء العلماء ثنت على مالك في سعة علمه وحفظه وفضله ولم يبلغ أحدا مبلغ الإمام مالك في العلم والإتقان، وبهذه المكانة تبوأ درجة متميزة بين علماء عصره وفي أوساط الأمة الإسلامية إلى يومنا هذا.

مؤلفاته:

يذكر المؤرخون أن الإمام مالك رحمه الله ألف مجموعة من الرسائل في مواضيع شتى منها الأدب والمواعظ والحساب والنجوم ومن أشهر مؤلفاته الموطأ الذي ألفه بطلب من الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، [5] ولم يفرغ منه إلا بعد أن مات هذا الأخير، قال عنه الشافعي ما على الأرض كتاب أقرب إلى القرآن من كتاب مالك بن أنس.[6]

---

[1] – مصدرنفسه، ج 02، ص 149.

[2]– ابن فرحون، مصدر سابق، ج 01، ص 75.

[3]– القاضي عياض، مصدر سابق، ج 01، ص 62.

[4]– مصدرنفسه، ص 153.

[5]– أبو جعفر المنصور: هو ثاني الخلفاء العباسيين تولى الحكم سنة 132هـ إلى غاية وفاته 157، أنظر عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول، دار الطليعة للطباعة والنشر، ص 55.

[6]– محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ص 370.

وحسب قول بعض المؤرخين وضع مالك رحمه الله الموطأ من عشرة آلاف حديث فلم يزل ينظر فيه كل سنه ويسقط منه حتى بقي هذا ولو بقي قليلا لأسقطه كله.[1]

الموطأ: يعد الموطأ من أوائل الكتب المدونة في الحديث والفقه الإسلامي فقد كان الناس قبله يعتمدون على الذاكرة أكثر من إعتمادهم على الكتب، أما التدوين والتأليف فقد ابتدأ بالموطأ كما يقول أهل الخبرة في الحديث والفقه.

وقد سلك الإمام مالك رحمه الله في تصنيف الموطأ منهجا جمع فيه بين:

-روايات من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وفتاوي الصحابة والتابعين.

-اجتهاداته واستنباطاته.

وقد رتبه على أبواب الفقه، فهو كتاب فقه وحديث معا.[2]

محنته: ألمت بالإمام مالك محن أشهرها كانت في عهد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور عندما فرض كتاب الموطأ على الأمصار ونبذ ما عداه من الكتب رغم أن كتابه لقي استحسان من قبل العلماء إلا أن الإمام مالك رحمه الله رفض ذلك وكان موقفه مشرفا بحجة أن صحابة رسول الله تفرقوا في الأمصار ونقلوا الحديث وعملوا به واجتهدوا في الحوادث التي استحدثت لهم.

بسبب هذا الموقف تعرض الإمام مالك للضرب بسبب عدم الإفتاء للحكام في بما يخدمهم.[3]

فضائل المدينة وانعكاساتها على المذهب المالكي:

لقد كان للمدينة المنورة فضل كبير على المذهب المالكي من خلال بيئتها العلمية وموقعها الديني في نفوس المسلمين.

---

[1]- القاضي عياض، مصدر سابق، ج 02، ص 71.

[2]- أحمد بن إدريس القرافي، الذخيرة في فروع المالكية، تحقيق: محمد حجي، ج 01، ط 01، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1994، ص 34.

[3]- محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ص 390.

تعتبر المدينة مقر الدولة الإسلامية الأولى وموطن الرسول صلى الله عليه وسلم عاش في أكنافها المهاجرون والأنصار ورغم انتقال عاصمة الخلافة منها بقيه الزعامة الدينية فقد كان علماؤها ورثه العلم النبوي، وكان المجتمع العلمي فيها أكثر المجتمعات صفاءا ونقاءا وبعدا عن تأثيرات العقدية والاتجاهات السياسية فلم يعرف عن أهلها الانحراف عن منهج السلف مثلما حدث لغيرها من المدن، فقد خرج من البصرة القدر والإعتزال، ومن الكوفة التشيع والإرجاء، وأما الشام فكان بها النصب والقدر، وقد اكتسب المذهب المالكي سمة أهل المدينة فلم يعرف عن متقدمي علمائه انحراف عقدي ولا فكري وهم متبعون على طريقه السلف.[1]

كما وفرت المدينة للإمام مالك جميع وسائل المعرفة الشرعية إذ كانت في عهده تزخر بالروايات المنقولة عن النبي صل الله عليه وسلم وبآثار الصحابة وفتاويهم متفوقه في ذلك على سائر الأمصار ومتميزة وبعيدة عن نفوذ الوضاعين والمدلسين ويقول ابن تيمية رحمه الله: "ولم يكن الوضاعون والمدلسون بالذين تن فق خزعبلاتهم ولا تروج ترهاتهم إذ كانت المدينة مكتظة بأهل العلم والأثر، هجيرا هم الرواية والحديث ودراسة العلم، وديدنهم التمسك بالحق الصريح، فلو رمي أحد الوضاعين بين ظهرانيهم بحصاه لنفوه، فإن المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها.[2]

أما الجانب الفقهي فقد كانت المدينة ميدانا للحوار الفقهي فهي مأوى ومجمع العلماء فكانت مركزا عظيما لحركة الاجتهاد، واشتهر من علمائها الفقهاء السبعة الذين انتشر عنهم فقه أهل المدينة، وعلى يدهم تخرج من جاء بعدهم من الفقهاء.[3]

---

[1]– صرموح رابح، منهج النقد في الفقه الإسلامي المذهب المالكي، رسالة دكتوراه، قسم العلوم الإسلامية، جامعة وهران 01، 2015، ص 61.

[2]– صرموح رابح، مرجع سابق، ص 63.

[3]– مصدر نفسه، ص 63.

ولا بد أن نشير هنا إلى الإشارة إلى أن تميز المدينة واعتمادها على الحديث والأثر هي السمة الغالبة ولا يعني إهمالهم للرأي.

المبحث الثاني: دخول المذهب المالكي افريقية وأسباب تأخر ظهوره واستقراره

كانت بداية دخول المذهب المالكي على يد أبي الحسن علي ابن زياد التونسي المتوفي في تونس سنة 183 هجري، فهو أول من أدخل الموطأ، وجامع سفيان الثوري وفسر لهم قول مالك ولم يكونوا يعرفونه.[1]

بالإضافة إلى الموطأ كان له سماع فتاوى ومسائل وسمع أيضا من سفيان الثوري والليث ابن سعد وابن لهيعة وغيرهم، وكان قد سمع قبل رحلته إلى المشرق من خالد بن أبي عمران عالم تونس وإمامها ومفتيها في وقته، وعليه تخرج وهو حامل لواء العلم بعده في إفريقيا حيث لم يكن بها في عصره مثله.[2]

عندما رحل زياد إلى المشرق للأخذ عن أعلام علمائها رحل وهو رأس أهل العلم والفقه بإفريقية، لذلك كشف مالك عن أصول مذهبه كشف العالم للعالم، فقد روى أسد عن المغيرة المخزومي وابن كنانة قولهما: "ما طرأ علينا طارئ من بلد من البلدان كشف لنا مالكا عن الأصول كشف علي بن زياد.[3]

ونشير هنا أن هذه الشهادة من علمين مرموقين من أعلام أصحاب الإمام مالك وعمد مذهبه في المدونتين.

كيف دخل المذهب المالكي إلى إفريقيا؟

---

[1]– القاضي عياض، مصدر سابق، ج 03، ص 80.

[2]– مصدر نفسه، ص 81.

[3]– عبد الله بن محمد المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم، ج 01، تحقيق: بشر البكوش، ط 01، دار الغرب الإسلامي، 1403هـ، ص 216.

كان علي بن زياد من الرعيل الأول من المغاربة الذين ضربوا أكباد الإبل ليزدادوا تفقها في الدين وتوسعا في الأخذ والرواية عن أئمة الهدى وأعلام العلماء بالمشرق وخاصة عالم المدينة وإمامها مالك بن أنس.

اذا عده صاحب المدارك في الطبقة الأولى من أصحاب مالك من أهل إفريقية، وبعد عودة ابن زياد إلى إفريقية بعلم الحجاز فإن المصادر والمراجع لم تبين تاريخ رحلته إلى المشرق أو عودته إلى إفريقية بنخبة العلوم المشرقية.[1]

غير أنه يمكن تعيين الفترة بالتقريب إذا تعذر تعيين وقتها بالتحديد وذلك من خلال ما يستنتج من بعض المعطيات التاريخية التي لها علاقة وارتباط برحلة بن زياد.

كما أن البهلول بن راشد القيرواني (ت 183هـ) كانوا من الذين أخذوا موطأ مالك، والجامع الكبير لسفيان الثوري عن علي بن زياد بتونس قبل رحله البهلول إلى المشرق لأخذهما عن مالك والثوري مباشرة، وكان معه في هذه الرحلة رفيقاه عبد الله بن غانم قاضي القيروان فيما بعد وعبد الله ابن فروح مفتي إفريقيا.[2]

كانت رحلتهم بعد رحلة علي بن زياد بمدة قصيرة ويبدوا أن رحلتهم إلى المشرق طالت نوعا ما حيث لازموا مجلس سفيان الثوري للأخذ عنه شهورا كثيرة.[3]

مراحل استقرار المذهب المالكي:

لقد تعثر انتشار المذهب المالكي واستقراره في إفريقية لعدة أسباب منها:

ظل المذهبان المالكي والحنفي يتنازعان الظهور والغلبة منذ دخول المذهب المالكي افريقية على يد علي ابن زياد التونسي وذلك خلال عصر بني العباس أيام أبي جعفر المنصور واستقر الصراع بين المذهبين بقية عصر الولاة.[4]

---

[1]– عبد الله بن محمد المالكي ، المصدر السابق، ص 235.

[2]– محمد المالكي، مصدر سابق، ج 01، ص 216.

[3]– القاضي عياض، مصدر سابق، ج 03، ص 03.

[4]– مصدر نفسه، ج 03، ص 100.

احتدام الصراع بين المذهبين طيلة حكم بني الأغلب على إفريقيا من سنة 184 هـ إلى سنة 297 هـ وهي السنة التي دخل فيها عبد الله الشيعي إلى إفريقيا واستولى عليها بعد فرار آخر أمراء بني الأغلب ومنذ ذلك الحين تحول الصراع بين المذهبين السنيين إلى صراع بين السنة ممثلة في علماء المالكية وبين روافض الشيعة الذين حاولوا فرض مذهبهم وعقائدهم الفاسدة بقوة السلاح.[1]

كان الصراع بين السنة والروافض صراعا شديدا منحت فيه أعلام المالكية كأبي زيد القيرواني والفاسي وابن عمران الفاسي، وامتحن العبيديون وأعوانهم ممن انتحل معتقدهم، ثم جاءت نهاية هذه المرحلة العسيرة على يد المعز لدين الله الصنهاجي الذي قطع دعوة العبيديين، ودعا لخلفاء بني العباس وحمل الناس على التمسك بمذهب مالك ويقول ابن خلكان في ترجمة المعز بن باديس المتوفي سنة 454 هـ: "كان مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه بإفريقيا أظهر المذاهب وحمل المعز جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب مالك وقد حسم مادة الخلاف في المذاهب واستمر الحال من ذلك الوقت إلى الآن.[2]

أسباب تأخر ظهور المذهب المالكي في المغرب الإسلامي (إفريقية):

أهم العوامل والأسباب التي أدت إلى تأخر ظهور المذهب المالكي واستمراره في إفريقية:

– أسبقية تواجد المذهب الحنفي في إفريقيا فكان فيها بمثابة مذهب الأوزاعي بالأندلس فكان المذهب الحنفي مسيطرا عليها إلى أن دخلها علي بن زياد ثم من جاء بعده بمذهب مالك فأخذ به أكثر الناس ويقول في هذا القاضي عياض رحمه الله: "وأما إفريقية وما وراءها من المغرب فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين إلى أن دخل علي ابن زياد وابن

[1]– حسن شرحبيلي، تطور المذهب المالكي في الغرب الاسلامي إلى نهاية عصر المرابطين، رسالة دكتوراه، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 2000، ص 36.

[2]– حسن شرحبيلي، مرجع سابق، ص 37.

الأشرس والبهلول بن راشد وبعدهم أسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك فأخذ به كثيرا من الناس".[1]

– موقف السلطة الحاكمة من المذهبين الرسمي للدولة هو المذهب الحنفي، ولا يولى القضاة من المالكية فالغالب يتم تعيين القضاة الحنفية ويقول ابن حزم رحمه الله: "مذهبان انتشرا في بادئ أمرهما بالرئاسة والسلطان مذهب أبي حنيفة فإنه لما ولي قضاء القضاة أبو يوسف فكان لا يولي قضاة البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب إلا أصحابه والمنتمين إلى مذهبه".[2]

– إنقسام المدرسة المالكية بإفريقيا في أول الأمر إلى إتجاهين:

أ– الإتجاه المالكي المحافظ ورواده علي بن زياد وابن الأشرس والبهلول ابن راشد ثم سحنون ابن سعيد وتلامذته فيما بعد وهو الإتجاه الغالب على عامة أهل إفريقيا.

ب– الاتجاه المالكي المتفتح على المنهج العراقي ورواده عبد الله بن غانم وعبد الله ابن فروخ ثم اسد ابن الفرات وأبو محرز ومن نحا نحوهم.

– موقف الإتجاه المالكي المحافظ من السلطة الحاكمة في البلاد وخاصة أيام الأغالبة وإبان حكم الروافظ، ويتجلى في إيثارهم مجانبة ذوي السلطان والنفور من المناصب وخاصة القضاء والتصدي لكل إنحراف عن المنهج القويم، كيفما كان نوعه وهذا ما أتاح لذوي الأطماع من الأحناف في تقلد المناصب بدون استحقاق غالبا، واتخاذها وسيلة لنصرة مذهبهم من خصومهم خاصة المالكية المحافظين.[3]

[1]– القاضي عياض، مصدر سابق، ج 01، ص 25.

[2]– أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 02، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر،بيروت، 1988، ص 10.

[3]– القاضي عياض، مصدر سابق، ج 03، ص 68.

المبحث الثالث: إنتشار المذهب المالكي

لقد تلقى مذهب الإمام مالك جمهور غفير من التلاميذ القادمين من أنحاء متعددة حيث لازموه وأخذوا عنه العلم الحديثي والفقهي وإلتزموا سلكه الاجتهادي، ولما رجعوا إلى بلدانهم حملوا معهم المنهج الشمولي في الدراسات الشرعية فحملوا الموطأ معه فقهه وأقوال ومسلكه واجتهاده، كما حملوا في نفوسهم إجلالا وتقديرا لإمامهم.

كانت البدايات الأولى لإنتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة ويعود كل الفضل إلى طلبة العلم الذين نشروا علم وتراث الإمام في جميع أقطار المغرب عن طريق التدريس والفتيا والقضاء والتزموا مذهب أهل المدينة في الفروع والأصول.[1]

وهناك عدة أسباب ساهمت في إنتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب الإسلامي ومنها:

- يرجع ابن خلدون أن سبب إنتشار المالكي يرجع أساسا إلى رحلة المغاربة إلى الحجاز غالبا حيث قال: "وأما مذهب مالك ابن أنس رحمه الله فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس وإن كان يوجد في غيرهم، إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في قليل لأن رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز وهو منتهي بمقرهم".[2]

[1]- عمر الجيدي، مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، ط 01، دار الهلال العربية، 1993، ص 16.

[2]- ابن خلدون، مصدر سابق، ج 01، ص 568.

– ملائمة مذهب أهل المدينة لطبيعة المغاربة لأن مذهب مالك مذهب عملي يعتمد على الواقع ويأخذ بأعراف الناس وعاداتهم الفقهية وهو يتماشى مع فطرة المغرب التي تتميز بالبساطة كما أنه خالي من تداخلات الآراء.[1]

– اثر موقع المدينة في قلوب المسلمين عامة والمغاربة خاصة باعتبارها مدينة صاحب المذهب التي نشأ فيها وحدث بها وهي مصدر العلوم الإسلامية كلها.[2]

– ساهمت مواقف السلاطين والحكام حيث قول ابن حزم الظاهري في تثبيت هذا المذهب وزيادة ارتشاره، حيث كانوا يلزمون رعاياهم بالتشبث بهذا المذهب.[3]

الأقاليم التي انتشر فيها المذهب المالكي: لعبت الرحلة العلمية نحو المشرق دورا هاما في انتشار المذهب المالكي بالمغرب الأدنى ، وكان على رأسها علماء كبار رحلوا إلى الإمام مالك وأخذوا عنه الفقه والحديث ومن بين هؤلاء: الإمام ابن غانم،[4] والفقيه أسد ابن الفرات.[5]

ويرجع الفضل في إنتشار المذهب المالكي في بلاد إفريقية إلى علماء الطبقة الأولى وخاصة علي بن زياد التونسي الذي أدخل الموطأ وقام بتفسيره.[6]

كما ساهم البهلول[7] بن راشد في إدخال ونشر المذهب المالكي ثم يأتي بعدهم أسد بن الفرات الذي تتلمذ على يد علي بن زياد قبل رحلته إلى المشرق والسماع من الإمام مالك وساهم الامام سحنون أيضا في انتشار المذهب خاصة بعد توليه منصب القضاء حيث

---

[1]– عمر الجيدي، مصدر سابق، ص 36.

[2]– القاضي عياض، مصدر سابق، ج 01، ص 37.

[3]– القاضي عياض ، المصدر السابق، ص 22.

[4]– ابن غانم: هو عبد الله بن عمر بن غانم بن شراحبيل من إفريقية كان فقيها ورعا عادلا في القضاء، سمع من مالك وسفيان الثوري، تولى قضاء إفريقية، توفي سنة 190هـ/205، انظر محمد بن أحمد التميمي، طبقات علماء إفريقية، ج 01، تحقيق: محمد بن ثبت، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، 206، ص 42.

[5]– أسد ابن الفرات: هو عبد أسد ابن الفرات ولد سنة 142هـ رحل إلى المشرق وتتلمذ وأخذ العلم عن مالك، تولى قضاء القيروان سنة 203، توفي سنة 210هـ، انظر محمد المالكي، مصدر سابق، ج 01، ص 204.

[6]– القاضي عياض، مصدر سابق، ج 01، ص 81.

[7]– القاضي عياض، مصدر سابق، ص 83.

تغلغل المذهب المالكي في أوساط المجتمع أكثر حيث دخل في صدام مع القضاة الحنفية بسبب بعض الأحكام مما عرضه لمحن قاسية من قبل قضاة الحنفية وأمراء الأغالبة.[1]

لعب العلماء والفقهاء المالكيين دورا كبيرا في إنتشار المذهب المالكي في المغرب الأدنى وذلك بسبب إتسامهم بالاعتدال خاصة منهم الذين تولوا مناصب القضاء مثل ابن سحنون، كل هذه الأمور جعلت الناس يلتفون حولهم ويأخذون ويتقبلون مذهبهم.

انتشار المذهب المالكي بالمغرب الاقصى :

ومما لا شك فيه أن دخول المذهب المالكي إلى المغرب الأقصى كان متأخرا وهذا شيء طبيعي إنطلاقا من وضعه السياسي والإجتماعي والديني كما أن إنتشار المذهب واستقراره بالمغرب كان حسب الفترات والمناطق التي تولت حكم المغرب الأقصى.

تضاربت الآراء حول من نقل المذهب المالكي إلى المغرب الأقصى، [2] وقد تم ترجيح إدريس الأول[3] على أنه هو من دعى الناس لإتباع مذهب الإمام مالك بن أنس وهكذا بدأ تهافت الوفود على المغرب الأقصى من جميع الأقاليم من أجل الإستقرار بها وساهمت هذه الهجرات في نشر المذهب المالكي بالمغرب الأقصى[4].

ولعل أول مرحلة من مراحل الإتصال بالمذهب المالكي هي منطقة النفوذ الادريسي كانت عن طريق العلماء الوافدين من إفريقيا والأندلس، فبشر إدريس بمقدمهم وأنس بوفادتهم واتخذهم بطانة ومن أهم هؤلاء العلماء الفقيد عامر بن محمد الغيني وكان رجلا صالحا

---

[1]– المصدر نفسه، ص 84.

[2]– المغرب الأقصى: يعتبرأبعد أجزاء المغرب عن الحجاز، أسس الأدارسة دولتهم "فاس" فيه يمتد من البحر المتوسط شمالا إلى جبال درن جنوبا ومن واد ملونة شرقا للمحيط الأطلسي غربا، انظر نصر الله سعدون عباس، دولة الأدارسة بالمغرب، دار النهضة العربية، ص 16.

[3]– إدريس الأول: هو إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي دخل إلى المغرب سنة 170هـ، توفي بفاس سنة 188هـ، انظر ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج 01، ص 85.

[4]– أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 01، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، 1997، ص 68.

وسفيان الثوري قدم من المشرق إلى الأندلس مجاهدا ثم وفد على إدريس الثاني، واستكتب أيضا الفقيه المالكي أبا الحسن عبد الله بن مالك الأنصاري الخزرجي الذي تولى عقد شراء إدريس الثاني للبقعة التي بنيت عليها العاصمة فاس.[1]

ونشير هنا أن إدريس لما شارك هذه النخبة من رجال العلم والصلاح في مسؤولية الحكم يكون قد فتح الباب الأوسط على مصراعيه لدخول مذهب عالم المدينة وإمام الأئمة مالك بن أنس.

إنتشار المذهب المالكي في المغرب الأوسط:

أثرت الأحداث السياسية والمذهبية التي شهدها المشرق بصورة مباشرة على بلاد المغرب فكانت انعكاساتها واضحة عليه من خلال تفاعل المنطقة مع عموم القضايا التي ظهر حولها الخلاف، وظهرت الدولة الرستمية الإباضية مستقلة ومنفصلة عن الخلافة العباسية وهي تنسب إلى مؤسسها عبد الرحمن بن رستم الفاسي الذي إجتمع عليه الإباضية فاتفقوا على أن يكون إمامهم وفكر في بناء مدينة تجمعهم سميت فيما بعد بتاهرت.

وتنوعت الفرق والمذاهب بسبب الحرية التي منحها عبد الرحمن بن رستم، [2] وكانت حدود دولة الأغالبة مجاورة للرستميين وهذا ما ساهم في دخول المذهب المالكي، وبسبب آخر يعود لتولي سحنون القضاء في القيروان حيث كان يرسل القضاة إلى أقاليم مختلفة وكان يمتحنهم في المذهب المالكي.[3]

[1]– خالد الناصر، مصدر سابق، ج 01، ص 69.

[2]– عبد الرحمن ابن رستم الفارسي: ابن بهرام بن مسري، ولد في العراق، عين قاضيا سنة 140، ثم عقدت الإمامة سنة 161 وتوفي سنة 171، انظر محمد عيسى، الدولة الرستمية، ط 03، دار القلم، 1987م، ص 70.

[3]– ابن عذارى المراكشي، بيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 01، تح: ج س كولان وإليفي برفشال، دار الثقافة، بيروت، ص 25.

كما ساهم هجرة العلماء الذين استقروا بالمغرب الأوسط فهناك العديد من فقهاء المالكية الذين ساهموا في إرساء القواعد الأولى للمذهب المالكي مثل مروان ابن أبي شحمة من أهل المسيلة[1] الذي أخذ العلم عن الإمام مالك رحمه الله.[2]

وساهم أهل الأندلس في دخول المذهب المالكي إلى المغرب الأوسط [3] وذلك من خلال التعاون بين الخلفاء الأمويين والحكام الرستميين.

كما اعتبر هؤلاء العلماء وغيرهم من النخبة التي ثبتت قواعد المذاهب الفقهية السنية، ببلاد الزاب وما جاورها بوضعهم اللبنة الأولى بتأسيس عدة مدارس مثل طبنة وتاهرت والقليعة وبجاية وبونة وتلمسان... إلخ، خاصة فقهاء المالكية والحنفية وتضييقهم الخناق على المذاهب الخارجية والمعتزلة.[4]

ويعود غالبية ارتباط سكان المغرب الأوسط بالمذهب المالكي لشخص مؤسسه الامام مالك الذي بنى قواعده على التمسك بالسنة ومحاربة البدع والتشبث بآثار الصحابة والتابعين والبعد عن إثارة المسائل العقدية.

---

[1]– أبو الوليد مروان بن أبي شحمة المسيلي الإفريقي، عالم فاضل حارب أهل البدع كان سحنون يعرف فضله، انظر المالكي، مصدر سابق، ج 01، ص 392.

[2]– مصدر نفسه، ج 01، ص 393.

[3]– المغرب الأوسط: هو الخط الذي يفصل بين المغربين الأوسط والأقصى، انظر محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 12.

[4]– موسى هيصام، التمكين للمذهب المالكي في المغرب الأدنى والأوسط بين القرنين الرابع والسادس، ج 01، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، 2013، ص 66.

الفصل الثاني:

جهود علماء المالكية في نشر مذهب السنة في المغرب

جهود علماء المالكية في نشر مذهب السنة في المغرب

بذل علماء المغرب جهودا كثيرة في نشر المذهب السني ودفاعهم عنه ووقفوا في وجه المذاهب المنحرفة الأخرى التي حاولت أن تبسط سلطانها على حساب مذهب السلف، اعتمد مذهب المالكية في تمسكهم بالسنة ودفاعهم عن العقيدة بالفتاوي والدروس وتدوين الآراء العقدية من خلال مدونات لها كتب ومراجع لطلاب المدارس.

المبحث الأول: تأثر علماء المغرب بالإمام مالك

يتبين تأثر علماء المغرب بالإمام مالك من خلال الإمعان في مؤلفات العقيدة حيث نلاحظ التوافق التام بينهما فمثلا نلاحظ عدم الخوض في المسائل العقائدية وهذا منهج سلكه الإمام مالك رحمه الله، وكان علماء المالكية يكرهون الخوض في هذه المسائل مما أثر على انتاجهم فيما إذا قورنوا بإنتاج علماء المشرق الإسلامي.[1]

ومما يدل على رفض علماء المغرب لكل التصانيف والكتب التي تتكلم على التوحيد، حيث رد أسد بن فرات [2] (ت210هـ) على بشير المرسي [3] الذي ألف كتاب في التوحيد فقال فيه مستنكرا فعله حيث قال: "أو جهل الناس التوحيد حتى يضع لهم بشر فيه كتاب! هذه نبوة إدعاها"، وهذا الرد دليل على عقلية مفطورة على رفض الخوض في هذا الجانب فهي ترى أن هذا الجانب لا يحتاج إلى من يوضحه للناس، لأن الناس مفطورون على معرفة ربهم ولا يحتاجون إلى من يوضحه ويعرفهم به، لأن القرآن الكريم والسنة النبوية بينتا وفعلا بما يكفي في أمر التوحيد.[4]

ولكن هذا لا يعني أنهم لم يحضوا إطلاقا في هذه المسائل بل إننا نستطيع القول أنهم رغم إمتناعهم هذا إلا أن الظروف التي وجدوا فيها اضطرتهم إلى بيان رأيهم في هذه المسائل ففي خوضهم في مسائل العقيدة نلاحظ أنهم كانوا يقفون عند ظواهر النصوص لا يزيدون عليها ولا ينقصون، بل كثيرا ما يستدلون على آرائهم بأقوال مثل قول الإمام أبي زيد القيرواني في جامعه وأن أفضل الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي وهذا قول مالك.

---

[1]– أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوي، ج 04، ص 426.

[2]– هو الإمام عبد الله ابن أسد بن سنان ولد بحرّان سنة 142هـ رحل إلى المشرق لطلب العلم وأخذ عن مالك موطأه، تولى قضاء القيروان سنة 203هـ، توفي سنة 210هـ، انظر القاضي عياض، مصدر سابق، ج 01، ص 465.

[3]– هو عبد الله بن بشير بن غياث بن عبد الرحمن المرسي من القائلين بخلق القرآن وهو قائد الطائفة المريسية، انظر الذهبي، مصدر سابق، ج 01، ص 199.

[4]– الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ج 01، تح: علي محمد عوض، ط 01، دار الكتب العلمية، لبنان، 1995، ص 322.

ومن العلماء المغاربة الذين استنكروا علم الكلام عبد الواحد المراكشي [1] حيث قال في معجمه: "وكان أهل المغرب ينافرون هذه العلوم... ووجدا ابن تومرت جوا خاليا وقوما لا يدرون الكلام"، وهذه العبارة تظل على أن أهل المغرب لم تكن لهم عناية بأصول الدين بل كان جل اهتمامهم بالفروع، كما أنهم رفضوا كل اتجاه فلسفي أو أي محاولة عقلانية في دين الله.[2]

وأما موقفهم من البدع والمبتدعة فقد كانوا من أشد الناس مقاومة لها ومن أشدهم تحذيرا منها كما كانت شدة مالك مع المبتدعة، ولا شك أن موقفهم ذلك تمتد جذورها إلى موقفه وتستمد وجودها من وجوده وهذا لا يقتصر على البدع الكثيرة فقط، بل إنه كان موقفا واحدا مهما كانت تلك البدع صغيرة أو كثيرة.[3]

وهذا الموقف يمكن أن نستشف منه بغض علماء المغرب البدعة ومخالفة السنة وهو موقف أبي جعفر موسى ابن معاوية (ت 228هـ) الذي كان مجانبا لأهل البدع حذرا من مخالفة السنة، من ذلك أنه لقي في رحلته محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة فلم يأخذ عنه فلما سئل عن ذلك قال: "لو ملأ لي مسجدي هذا ذهبا ما سمعت منه حرفا وذكر أنه بلغه عنه شيء من مخالفة السنة".[4]

وهنا نلاحظ مدى حذر علماء المالكية الشديد و خوفهم البالغ من الوقوع في البدعة ومخالفة السنة هو الي جعلهم يقفون مثل هذه المواقف.

وأما موقفهم من أهل الفرق نلاحظ أيضا موافقه هذه الموافق لمواقف الإمام مالك رحمه الله الذي كان من أشد الناس مقاومة لأهل البدع، ونذكر موقف للإمام سحنون ابن

---

[1]– عبد الواحد المراكشي: ولد سنة 581هـ بمراكش، رحل إلى المشرق ولم يعد انقطعت أخباره هناك توفي سنة 647، انظر عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط 01، المكتبة العصرية، بيروت، 2006، ص 15.

[2]– مصدر نفسه، ص 146.

[3] – إبراهيم علي التهامي، أهل السنة والجماعة في المغرب وجهودهم في مقاومة الإنحرافات العقدية من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن 05، رسالة دكتوراه، قسم العقيدة، جامعة أم القرى، السعودية، 1412هـ، ص 166.

[4] – علي التهامي، مرجع سابق، ص 167.

سعيد (ت 240هـ) الذي قاوم أهل البدع وأخفت كل صوت مارق وكل نزعة عقلية ومنع دروس الإباضية والصوفية والمعتزلة وكان موقفه من الروافض أوضح دليل على بغضه للمبتدعة، وعلى تأثير الإمام مالك الكبير فيهم، فلقد قالوا بكفرهم كما هو قول إمامهم مالك.[1]

هذا موقف واحد من علماء المغرب يوضح لنا مدى بغضهم للشيعة وحرصهم على مقاومتهم وتكفيرهم ومعاداتهم وقتالهم إذا واتت الفرصة لذلك.

وأمَّا موقفهم من التصوف فقد كان هو الآخر متأثرا بموقف الإمام مالك رحمه الله إذ كان موقف الإمام مالك يقف عند حدوث الإنكار لأن التصوف كان يومها في بدايته أما موقف علماء المغرب فقد ترجم إلى واقع عملي والذي تمثل في حرق كتاب الأحياء للغزالي وغيره من الكتب التي صنفت في مجال التصوف.[2]

وفي موقفهم من صفات الله تعالى نلاحظ أنهم كانوا ملتزمين بالنص لا يحيدون عنه قيد شعرة، قال ابن عبد البر: "ليس في الاعتقاد كله في صفات الله تعالى وأسمائه إلا ما جاء منصوصا في كتاب الله أو عن صح الرسول الله صلى الله عليه وسلم أو أجمعت عليه الأمة وما جاء من أخبار الأحاديث في ذلك كله يسلم ولا يناظر".[3]

اعتبر علماء المغرب أهل الكلام كلهم أهل بدع وأهواء سواء منهم من كان أشعريا أو غير أشعري ولا تقبل له شهادة في الإسلام ويهجر ويؤدب على بدعته فإن عاد عليها استتيب منها.[4]

كما اعتبر علماء المغرب بأن القائل بخلق القرآن زنديق وهو قول الإمام مالك، وما دام ذلك فلا يستتاب وقد خالفهم أسد ابن الفرات في ذلك وقال يستتاب، وهو أيضا قول للإمام مالك الذي آثر عنه في المسألة قولان.[5]

---

[1] – القاضي عياض، مصدر سابق، ج 02، ص 251.

[2] – ابن عبد البر، مصدر سابق، ج 02، ص 96.

[3] – مصدر نفسه، ص 97.

[4] – علي التهامي، مرجع سابق، ص 173.

[5] – علي التهامي، مرجع سابق، ص 173.

كما أنهم كانوا يمنعون في الخوض في الحديث عن الأفضل والمفضول وحرموا الوضيعة في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن ما وقع بينهم لاحق لهم بالخوض فيه وهذا قول الإمام مالك.[1]

هذه أمثلة قليلة تبين مدى التوافق بين مواقف علماء المغرب وآرائهم وبين موقف الإمام مالك وآرائه وهي تدل على التأثير الكبير الذي أثره هذا الإمام في علماء المغرب وكان من أثر هذا التأثير أن وجدنا المغرب لا يعاني مما يعاني منه المشرق من الصراعات العقدية بين أهل الفرق المختلفة.

ونلاحظ الفرق بين المغرب والمشرق من حيث السلامة من البدع والصرعات العقدية في قول ابن جبير صاحب الرحلة المشهورة، حيث قال: "وليتحقق المتحقق ويعتقد صحيح الاعتقاد أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب لأنهم على جادة واضحة لا ينيات لها، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات الشرقية، فأهواء وبدع وفرق ضالة وشيع إلا من عصم الله عز وجل من أهلها.[2]

ويعود كل الفضل إلى إمام المدين الذي كان ينفي خبث البدع عن أهل مذهبه فلا تجد المالكية بدع مثل الاعتزال والشيعة وغيرها.

ونظرا للمستجدات التي حدثت بعد وفاة الإمام مالك رحمه الله حيث كانت الأمور في عهده في بدايتها ولم تكن قد بلغت من الإنتشار والخطر ما بلغته من بعده حيث أصبحت لتلك الأفكار مذاهب بدعية ودول تتحكم في رقاب المسلمين فكان لزوما على علماء المغرب إستحداث آراء ومواقف، فكانت من تلك الآراء قتال الشيعة ورفع السلاح.[3]

أما موقفهم من المناظرات نجد أن أهل المشرق كانوا سباقين إلى مثل هذه المناظرات وذلك لأن وجود هذه التيارات والمذاهب البدعية بالمشرق أقدم منها في المغرب بل إن

---

[1] – القاضي عياض، مصدر سابق، ج 02، ص 600.

[2] – ابن جبير، مصدر سابق، ص 55.

[3] – علي التهامي، مرجع سابق، ص 174.

وجودها في المغرب تابع لوجودها في المشرق، ومن الأمثلة يحدثنا أحمد بن محمد سعدي على نوعية هذه المجالس التي حضرها أثناء رحلته إلى المشرق وقد سأله الإمام أبي زيد القيرواني فأخبره عن الفرق الكلامية ومناظراتهم مع السنة فتعجب أبي زيد القيرواني من ذلك وقال: "ذهب العلماء وذهبت حرمة الإسلام وحقوقه، وكيف يبيح المسلمون المناظرة بين المسلمون والكفار؟ وهذا لا يجوز".[1]

ومثل هذه المجالس كانت منتشرة بكثرة في المشرق بين رجال الفرق المختلفة ثم انتقلت إلى المغرب مع إنتقال هذه الفرق، ومثل هذه المجالس لم تكن قد وجدت أيام الإمام مالك، وإن وجدت لم تكن بهذا الحجم كما أنها لم تكن بالمدينة ولا بمكة لوجود عدد كبير من علماء السنة بهما الذين لم يكونوا يسمحون أن يقع مثل هذا على مرأى ومسمع منهم ولذلك وجدنا الإهتمام بها من قبل العلماء عند مالك أو غيره في تلك الفترة.

[1] – مصدر نفسه، ص 175.

المبحث الثاني: جهود فقهاء المالكية في تدوين الآراء العقدية

بعدما إنتهى عهد الصحابة والتابعين الذين نشروا الحديث والفقه في هذا الجزء من العالم الإسلامي ونشروا سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، جاء دور علماء المغرب الذين رحلوا إلى المشرق للأخذ عن علمائه فكان لهم أثر كبير في نشر السنة وتم ذلك من خلال مرحلتين:

1- مرحله قبل التصنيف: تميزت هذه المرحلة بمواقف عبر عنها علماء المغرب بالكلمة من خلال الفتاوى والدروس التي كانوا يلقونها في المساجد على تلاميذهم ولم يكونوا يعتنون بتدوينها في مصنفات وكتب.

لقد كان الإمام عبد الله بن فروخ الفاسي [1] من أوائل من رحلوا في طلب العلم و كان من شيوخ المغرب الكبار وكان مالك يجله ويعرف له فضله.[2]

وكان الإمام بهلول بن راشد [3] (ت 182 هـ) من أعلام السنة الذين بين عنها ومن قوله كان يقول: "السنة السنة ويلح عليها".[4]

ولقد كان الإمام أسد بن الفرات (ت 210هـ) هو الآخر من أعلام السنة في تلك الفطرة وكان مشهورا بالفضل والدين ومذهبه السنة ولم يكن فيه شيء من البدع بل كان معاديا لأصحابها مقاوما لهم وآرائهم العقائدية هي آراء علماء السلف الذين أخذ عنهم وتربى على أيديهم.[5]

---

[1] – ابن فروخ الفاسي، هو أبو عبد الله بن فروخ الفارسي، فقيه ومحدث، ولد سنة 115هـ، استقر بالقيروان، توفي سنة 176هـ، انظر القاضي عياض، مصدر سابق، ج 01، ص 339.

[2] – محمد المالكي، مصدر سابق، ج 01، ص 234.

[3] – بن راشد: البهلول بن راشد الحجر الرعبني الفقيه، ولد سنة 128هـ، رحل الى المشرق فسمع عن مالك، توفي سنة 183هـ، انظر المالكي، مصدر سابق، ج 01، ص 200.

[4] – علي التهامي، مرجع سابق، ص 185.

[5] – القاضي عياض، مصدر سابق، ج 022، ص 301.

أما الإمام أحمد بن أبي محرز [1] (ت 221هـ) فقد كان بحرا من بحور العلم، حافظا للسنن جامعا إماما عارفا بأصول الديانات وعلى هدى وسنة وإستقامة وكان سيفا مجردا على أهل الأهواء والبدع قائما لهم غيورا على الشريعة شديدا في ذات الله.[2]

وممن كان على مذهب السلف من العلماء في تلك المرحلة عبد الله بن أبي حسان اليحصبي[3] (ت 226هـ)، فقد كان شديد التمسك بالسنة شديد الذود عنها شديدا على أهل البدع وكان ينكر على من يخوض في القرآن.[4]

أما العالم يوسف الخزاعي [5] (ت 239هـ)، كان شديدا على أهل البدع مدافعا عن السنة، ولكن كان في هذه الفترة الإمام سحنون بن سعيد (ت 240هـ)، الذي أشتهر وكان ذروة هذا العهد بلا منازع، تميز بعلمه الغزير وشجاعته ومواقفه النادرة وتنظيمه للمجتمع السني وهو الذي حارب وفرق أهل البدع وشرد أهل الأهواء من الصفرية والاباضية والصوفية، وكان مذهبه في العقائد مذهب السلف وقد امتحن هذا الإمام في بدعة القول بخلق القرآن وسلمه الله من هذه الفتنه.[6]

هذه أمثله قليلة من الجيل الأول من علماء المغرب الذين حملوا لواء السنة ونشروا مذهب السنة وقاوموا الإنحرافات العقدية.

---

[1] – هو الإمام محرز تولى القضاء بعد أبيه الذي كان ن مشايخه، توفي سنة 221، انظر محمد المالكي، مصدر سابق، ج 01، ص 395.

[2] – علي التهامي، مرجع سابق، ص 187.

[3] – حسان اليحصبي: ولد سنة 140هـ بتونس، رحل الى المدينة وأخذ عن مالك، روى عنه سحنون وغيره، توفي سنة 226.

[4] – القاضي عياض، مصدر سابق، ج 01، ص 480.

[5] – هو الامام عون بن يوسف الخزاعي، ولد سنة 150هـ، من أهل القيروان، رحل إلى المشرق لطلب العلم، توفي ستة 239هـ، انظر القاضي عياض، مصدر سابق، ص 189.

[6] – علي التهامي، مرجع سابق، ص 189.

مرحلة تصنيف الكتب وتدوين الآراء العقدية:

إستمر علماء السنة في أداء رسالتها على يد الجيل الثاني من علماء المغرب الذين تتلمذوا وتخرجوا على يد الجيل الأول، استمروا في حمل الرسالة رغم الظروف القاسية والفتن والخلافات والثورات التي يمر بها المغرب، وبسبب ظروف المرحلة تطورت وسائل الرد على المخالفين والدفاع عن عقيدة أهل السنة حيث اعتمدوا في ردهم على المناوئين على الفتاوى والدروس تلقى في المساجد واتسمت هذه المرحلة بتدوين الآراء العقدية وأصبحت لها مصنفات وكتب مشهورة.

لقد برز في هذه المرحلة عدد كبير من علماء المغرب الذين تصدوا ودافعوا عن منهجهم وكان لهم الفضل الكثير في تمكين للمذهب السني في هذا الجزء من العالم الإسلامي، ومن أشهر الذين برز نجمهم في هذه المرحلة بن نصر بن حضرم [1] شيخ محمد بن سحنون فقد كان ذا جدال وحجية وكان إماما في النظر.[2]

وأبو العباس عبد الله بن طالب [3] 276 هـ، الذي اشتهر أيضا بالمناظرة ومما كان يقوله في خطبه مما يدل على تنشئته وانتحاله مذهب أهل السنة قوله: "الحمد لله الذي عذب على ما لو شاء عصم والحمد لله الذ ي على عرشه إستوى وعلى ملكه إحتوى وهو في الآخرة يرى"، وكان رحمه الله شغوفا بالمناظرة.[4]

[1] – كان بن حضرم معلم ابن سحنون وكان ذا حجة وجدال، مات في صقلية، أنظر الخشني، طبقات علماء إفريقية، تح: محمد عزي، ط 01، مكتبة مديولي، القاهرة، 1993، ص 65.

[2] – الخشني، المصدر السابق، ص 65.

[3] – هو العباس عبد الله بن طالب، سمع عنه سحنون، ولي القضاء مرتين، وكان جيدا في النظر، توفي سنة 276هـ، انظر القاضي عياض، مصدر سابق، ج 02، ص 194.

[4] – الخشني،مصدر سابق، ص 65.

ومنهم الامام محمد بن أحمد الفارسي [1] (ت 359هـ)، وكان رجلا خيرا فاضلا متمسكا بالسنة شديد الإنكار على أهل البدع صلبا في ذلك، وكان قد امتحن من أجل صلابته تلك.[2]

ومنهم الإمام أحمد بن عون البزاز [3] (ت 378هـ)، كان شخصا صارما في السنة متشددا على أهل البدع صبورا على الأذى.[4]

ومنهم أيضا الإمام عباس بن عمرو بن هارون الوراق [5] 279هـ، الذي كان من أهل السنة قائما عليها بصيرا بالرد على أصحاب المذاهب والفرق وكان هذا الفن من العلوم أكثر علمه.[6]

ومنهم الإمام أحمد بن محمد بن سعدي، الذي كان من أعلام السنة في ذلك العهد من الذابين عنها، كان مجانبا لأهل البدع والأهواء ونقل عنه أنه ترك مجالس أهل الكلام خلال رحلته إلى المشرق لما رأى فيها من مخالفة للدين.[7]

أما الإمام محمد بن نصر فتوح الحميدي [8] 488 هـ، كان علما من أعلام السنة محققا محققا في أصول الدين على مذهب أصحاب الحديث داعيا إلى الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وما اجتمعت عليه الأمة.[1]

---

[1] – هو الامام أحمد أبو عبد الله الفارسي من أهل القيروان، سمع عن زياد، استقر بقرطبة وتوفي بها سنة 359هـ، انظر ابن القرطبي، تاريخ علماء الأندلس، ج 02، تح: إبراهيم الأبياري، ط 02، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1989، ص 112.

[2] – ابن الفرظي، نفس المصدر، ج 02، ص 112.

[3] – هو الإمام أبو جعفر أحمد جدير البزاز، ولد سنة 300هـ، رحل وسمع في مكة والشام ومصر، توفي سنة 378هـ، انظر ابن الفرضي، مصدر سابق، ج 01، ص 54.

[4] – ابن الفرضي، مصدر سابق، ج 01، ص 54.

[5] – هو الإمام أبو الفضل عباس بن عمرو بن هارون الوراق، ولد سنة 295هـ، خرج إلى القيروان وتوفي بها سنة 389هـ، انظر ابن القرطبي، مصدر سابق، ج 01، ص 239.

[6] – ابن الفرضي، مصدر سابق، ج 01، ص 299.

[7] – مصدر نفسه، ج1، ص 293.

[8] – هو الإمام أبو عبد الله بن نصر فتوح بن عبد الله الأزدي المعروف بالحميدي ، روى عن ابن حزم و الخطيب البغدادي ،توفي سنة 488 هـ ، انظر ... الذهبي ،مصدر سابق ، جزء 19 ،ص 120.

ومنهم الإمام محمد بن الحسن الحضرمي [2] 489 هـ، والذي كان إماما في أصول الدين على مذهب السلف كما يظهر من مؤلفه في العقائد والإيمان إلى مسألة الإستواء، وله نصوص بعلم الاعتقادات والأصول وكان من أبرز رجال هذه المرحلة الذين كانت لهم القدم العالية في ترسيخ المذهب السني في المغرب والأثر العظيم في إرساء دعائمه بهذا الجزء من العالم الإسلامي الفسيح والذين أثروا هذا الجانب مصنفاتهم ومواقفهم.[3]

وأما الإمام الجهبذ محمد بن سحنون [4] 256 هـ، الذي يعتبر فاتحة هذا العهد مرحلة الكتابة في مسائل العقيدة لكونه أول من فتح باب الكتاب في مسائل العقيدة على طريقة أهل السنة بعدما ضل علماء السنة المغاربة محجمين عن اقتحامها.[5]

ويعتبر سحنون إمام عصره في مذهب مالك واسع المعرفة متطلعا في علوم شتى، فلما اجتمعت في غيره من الفقه البارع والعلم بالأثر والجدل والمناظرة.[6]

وكان يحسن الحجة والذود عن أهل السنة والرد على أهل الأهواء ولم يكن أحد في عصره أجمع منه لفنون العلم ولا أكثر تصنيفا منه حيث صنف مصنفات عظيمة في الفقه والعقيدة والمغازي وغير ذلك من فنون العلم.[7]

ويعتبر الإمام أبي زيد القيرواني [8] (ت 386هـ)، رأس رجال هذه المرحلة، كان يلقب بمالك الصغير كما له دور فعال في نشر مذهب مالك على نطاق واسع بالمغرب بمصنفاته

---

[1] – القاضي عياض ،مصدر سابق ، جزء 2 ، ص189.

[2] – هو الإمام أبو بكر محمد الحسن الحضرمي، كان عالما وفقيها ولفر البلاغة، توفي سنة 489هـ، انظر ابن شكوال، الصلة، ج 02، تح: إبراهيم الأبياري، ط 01، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1983، ص 604.

[3] – ابن شكوال، مصدر سابق، ج 02، ص 605.

[4] – هو الإمام سحنون عبد السلام النتوحي القيرواني، ولد سنة 202هـ، رحل إلى المشرق ولقي الزهري، توفي سنة 206هـ، انظر محمد المالكي، مصدر سابق، ج 01، ص 442.

[5] – علي التهامي، مرجع سابق، ص 202.

[6] – مصدر نفسه، ص 203.

[7] – علي التهامي ، مرجع سابق، ص 203.

[8] – هو الإمام أبو عبد الله أبي زيد القيرواني النفري، ولد بالقيروان سنة 310 هـ و أخذ بها العلم، لقب بمالك الصغير، توفي سنة 386 هـ ... انظر ابن فرحون ،مصدر سابق، جزء1 ، ص 428.

الكثيرة والنافعة والتي لقيت شهرة منقطعة النظير في عهده وبعده، حيث أقبل عليها الطلبة دراسة وشرحا وتدريسا.[1]

وإلى جانب بروزه في الفقه على مذهب مالك كان من الناحية العقدية أيضا من أبرز رجال هذه المرحلة إن لم نقل من أبرزهم وكانت طريقته في العقائد هي طريقه السلف لا يدري ما الكلام ولا يتناول كما يقول الذهبي، وبسبب عقيدته السلفية اتهم بالتشبيه واتهموه بأنه مخالف للكتاب والسنة ولكن الحقيقة لكونه مخالفا للعقل ومن أشهر المنكرين على القيرواني أبو بكر ابن العربي الذي اتهمه بالتشبه.[2]

نلاحظ أن من خلال كتب القيرواني ومصنفاته في مجال العقيدة، أن هذا الكلام افتراء وكذب، وهذه شهادة عالم من كبار العلماء فهذا البقلاني ت 403 هـ، رأس الأشعرية في عصره يشهد للقيرواني بالتبحر في علم أصول الدين في كتابه المصنف في "كرامات الأولياء".

كما وصفه ابن فرحون بأنه كان ذابا عن مذهبه قائما بالحجة بصيرا بالرد على أهل الأهواء، ومن مصنفاته في مجال العقيدة التي تبين تبحره في علم أصول الدين مثل: الرسالة في الفقه المالكي والتي قدم لها بمقدمة في العقائد وهذه الرسالة هي أشهر كتبه، وهناك كتاب الجامع في السنن والأداب والمغازي والسير، وله أيضا مقدمة في عقيدة أهل السنة، وله رسالة في التوحيد، وله كتاب في النهي عن الجدال ورسالة مشهورة في الرد على القدرية.[3]

بعد هذا التبيين والكم الهائل من المصنفات يظهر لنا جليا مدى تبحر الإمام أبي زيد القيرواني في علم أصول الدين، وسقط قول من قال واتهم القيرواني بأنه لم يكن يحسن علم أصول الدين.

---

[1] – علي التهامي، مرجع سابق، ص 206.

[2] – مصدر نفسه، ص 209.

[3] – علي التهامي ، مرجع سابق ، ص 250 .

كما لا ننسى العلامة الإمام أبو عمر الطلميكي [1] 429 هـ، رجل هذه المرحلة، قيل عنه أنه كان شديدا في التمسك بالسنة عارفا بأصولها وكان متبع العقائد على منهج السلف، أشهر مصنفاته في المجال العقدي كتاب الوصول إلى معرفة الأصول.[2]

أما الرجل الآخر الذي له باع في السنة وقدم راسخة في العلم هو العلامة والإمام ابن عبد البر [3] (ت 463هـ)، الذي يعد أحد مفاخر العرب فقد كان إماما في الحديث وعلوم العقائد وقد أصبحت مصنفاته تلك منارات لطلبة العلم ومن أشهر مؤلفاته جامع بيان العلم وفضله وهو كتاب مهم في بابه، أما منهجه فكان على مذهب السلف ويتضح ذلك من خلال كتابه التمهيد في شرح الموطأ.[4]

المبحث الثالث: جهود فقهاء وعلماء المالكية في نشر الفقه والحديث

تلقى أهل إفريقية بعض علم الحديث كما هو معروف عن الصحابة وكثيرا منه عن التابعين الذين كان جلهم رواه وكثير منهم من رجال الكتب والسنة وخاصة رجال بعثة عمر بن عبد العزيز الذين جاءوا خصيصا لنشر الحديث في القيروان واستمر التابعين في القيام بمهمتهم التعليمية ناشرين لعلوم السنة المنقولة بالرواية أمدا طويلا، وهكذا يمكن القول أن

[1] – هو الإمام أبو عمر أحمد بن محمد بن أبي عيسى المعافري الطلينكي، رحل أولا إلى المشرق ثم إلى الأندلس، توفي سنة 429هـ، انظر القاضي عياض، مصدر سابق، ج 04، ص 114.

[2] – القاضي عياض، مرجع سابق، ج 04، ص 114.

[3] – ابن عبد البر: هو أبو عر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري، فقيه حافظ محدث، كثير الشيوخ، له مؤلفات نافعة، وكان يميل إلى الفقه الشافعي، ولد سنة 362هـ، توفي سنة 460هـ، انظر القاضي عياض، مصدر سابق، ج 04، ص 808.

[4] – علي التهامي، مرجع سابق، ص 209.

رواية الحديث ودراسته بإفريقية شاعت وانتشرت في عهد التابعين مما يعني أنهم تلقوا هذا العلم من مصدره الطبيعي وتوجهوا منذ البداية توجها سنيا.[1]

ثم عرف القرويون طريقهم إلى الرحلة واتصل سندهم بكبار محدثي المشرق مثل ظهور المذاهب الفقهية فازدادت رواية الحديث عندهم انتشارا ومن مثَّل هذه المرحلة عبد الرحمن بن زياد الافريقي.[2]

ولما ظهرت المذاهب مال القرويين إلى المذهب الذي سبق إلى الاعتماد على الآثار والذي يتلاءم مع اهتمامهم بالحديث ذلك هو مذهب الإمام مالك بن أنس المعتمد على الحديث وترك الرأي وبذلك توطدت عملية الارتباط بين الفقه والحديث بإفريقية.[3]

برز في علم الحديث والفقه كوكبة من العلماء والفقهاء مثل محمد بن سحنون وأبي الحسن الفاسي ت403هـ، غير أن تسمية الفقيه كانت أغلب عليهم، حيث كان يطلق الفقيه على العالم المتفننين في مختلف العلوم وعلى رأسها الحديث والفقه، [4] ومن أدلة ارتباط الحديث بالفقه في هذه الفترة ما يلي:

1- تفضيل مذهب مالك على غيره لاعتماده على الحديث ولتقدمه على غيره من المذاهب التي سلكت نفس النهج ويعود سبب اختيار الأفارقة لمذهب مالك إلى تعطشهم للوصول إلى المذهب الذي تتمثل السنة فيه في أقوى رجالها، وقد وجدوا ذلك في مذهب مالك المبني أساسا على حديث أالحجاز وهم الصفوة والكثرة من الصحابة والتابعين.[5]

---

[1] – محمد شواط، مدرسة الحديث القيروان من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري، ج 01، ط 01، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، 1441، ص 177.

[2] – ابن عبد البر، مصدر سابق، ج 01، ص 26.

[3] – محمد شواط، مرجع سابق، ج 01، ص 178.

[4] – ابن خلدون، مصدر سابق، ص 445.

[5] – محمد شواط، مرجع سابق، ج 01، ص 179.

2- حافظ القرويين على أصول مذهب مالك كما جاءت في الموطأ فلم يتوسع في الاجتهاد وطرح المسائل إلا بقدر النوازل حيث قال ابن خلدون: "لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها".[1]

3- ومن بين الأمثلة التي تبين إنكار أهل المغرب للمذاهب التي تخلوا من الأحاديث وجنوحها للرأي عندما عاد أسد ابن الفرات "بالأسدية" إلى القيروان حيث أنكر عليه أهلها وقالوا له: "يا عبد الله جئتنا بالرأي وتركت الآثار وما كان عليه السلف".[2]

وهذا دليل على تشبث أهل إفريقيا بالحديث وكان هذا النقص في الأسدية من أهم الأسباب التي دفعت بالإمام سحنون إلى أن يرحل بها ليعيد سماعها من علماء المشرق ليعيد تأصيل مسائل الأسدية ويرد معظمها إلى أدلتها من الأحاديث والآثار.

4- إعتناء القرويين بدراسة "المدونة" عمدة المذهب عندهم بعد الموطأ مما يدل على إهتمامهم بالحديث كأساس يعتمد عليه الفقه ويعتنون بتصحيح الروايات ويتبعون الأثر ونحو ذلك حيث قال المقري: "وقد كان للقدماء رضي الله عنهم في تدريس المدونة اصطلاحان، اصطلاح عراقي واصطلاح قروي فأهل العراق اعتمدوا في مسائل المدونة على الأدلة والقياس أما اصطلاح القروي فهو البحث عن الألفاظ في الكتب وتحقيق ما تحتوي عليه بواطن الأبواب وتصحيح الروايات وتتبع الاثار".[3]

وهكذا يتبين لنا إلى أي مدى كانت الصلة وثيقة بين الحديث والفقه في القيروان وقد كان على رأس العلوم التي اهتم بها الأفارقة وكان ازدهار الفقه ازدهارا له بالتبع، بالإضافة إلى ازدهاره من حيث العناية به ابتداء.

الفقه:

[1] – ابن خلدون، مصدر سابق، ص 449.

[2] – محمد المالكي، مصدر سابق، ج 01، ص 266.

[3] – محمد شواط، مرجع سابق، ج 01، ص 180.

لقد كان الفقه في البداية يعتمد على الرواية في أدلتها ومسائله الفرعية وذلك إلى حدود منتصف القرن الثاني، ثم ظهرت المذاهب الفقهية المعروفة وتركزت بالقيروان وكان المذهب المالكي والحنفي أكثر المذاهب اتباعا وأوسعها انتشارا وقد تقلص المذهب الحنفي تدريجيا بسبب اعتماده على الرأي وركون أعلامه إلى السلطان.[1]

أما المذهب المالكي فقد حضي بمنزلة عظيمة عند القرويين بسبب اعتماد مؤسسه على الحديث والآثار بالدرجة الأولى وبعده على الرأي والتأويل بالإضافة إلى تقدمه زمنيا على غيره من المذاهب التي سلكت نفس النهج في الاعتماد على الحديث.[2]

وكان الموطأ هو رأس مذهبه وقد ظهرت أول رواية له بإفريقيا على يد علي بن زياد وفي القيروان ظهرت على يد الإمام سحنون 240هـ أول مصنف جامع لمسائل المذهب مؤسسه على الحديث والآثار ذلكم هو كتاب "المدونة الكبرى" عمدة المذهب المالكي في إفريقيا والمغرب وقد وضع عليها من الشروح والاختصارات والتعاليق ما لم يعرف لغيرها من أمهات الكتب الفقهيه.[3]

وقد أخرجت القيروان ما لا يحصر من علماء المذهب المالكي منهم أكثر من ثلاثين تتلمذوا على الإمام مالك، وكان لكثير منهم سماعات مدونة غير الموطأ ومن مشاهير علماء المذهب بعد سحنون ابنه محمد ت 206هـ، حامل لواء المذهب بعد أبيه وهو أول شارح للموطأ ولبعض كتبه المدونة.[4]

وأبو بكر محمد بن محمد اللباد ت 333هـ، كان فقيها جليل القدر عالما باختلاف أهل المدينة واجتماعهم، وكان من كبار حفاظ المذهب وعليه تفقه أكثر القرويين، له كتاب الآثار والفوائد وكتاب فضائل مالك وكتاب الطهارة وكتاب الحجة وغيرها من المصنفات.[5]

---

[1] – القاضي عياض، مصدر سابق، ج 01، ص 54.

[2] – محمد شواط، مرجع سابق، ج 01، ص 182.

[3] – ابن خلدون، مصدر سابق، ص 450.

[4] – القاضي عياض، مصدر سابق، ج 01، ص 317.

[5] – محمد شواط، مرجع سابق، ج 01، ص 184.

وأبو الحسن محمد القاسي 403هـ وهو كبير علماء المذهب في زمانه جمع بين الإمامة والفقه والحديث وبه انتفع الناس من مختلف بلاد المغرب ومن مصنفاته كتاب الممهد وهو كتاب كبير رتبه على أبواب الفقه وجمع فيه بين الحديث والآثار والفقه.[1]

وأما أبو القاسم محمد الحضرمي 440هـ، يعتبر من مشاهير علماء المذهب المؤلفين فيه، له كتاب جامع في المذهب أكثر من مائتي جزء فيها مسائل مدونة حيث بسطها وأخرج منها تفريعات وكتاب في اختصار المدونة سماه "الملخص".[2]

وأبو القاسم الخالق بن عبد الوارث السيوري ت 482هـ، وهو خاتمة علماء القيروان وآخر الشيوخ القائمين على المذهب فيها قبل خرابها وكان يملي المدونة من حفظه، وله عليها تعليق، أخذ عنه أصحابه وإلى جانب الرئاسة في الفقه كان له إهتمام بالحديث والقراءات والأصول والنحو من العلوم.[3]

وهكذا نلاحظ أن المذهب المالكي حضي بشعبية معظم علماء وفقهاء القرويين بسبب اعتماد مؤسسه على الحديث والآثار بالدرجة الأولى وبعده عن الرأي والتأويل، وهذا ما اتضح لنا من خلال عرض لأهم المصنفات الحديثة والفقهية.

[1] – المرجع السابق، ج 01، ص 185.

[2] – القاضي عياض، مصدر سابق، ج 03، ص 701.

[3] – ابن فرحون، مصدر سابق، ص 158.

الفصل الثالث:

المذهب الأشعري في المغرب

المذهب الاشعري في المغرب

شهدت الفترة من النصف الثاني للقرن الثالث الهجري والنصف الأول من القرن الرابع أحداثا فكرية هامة في الدولة الإسلامية وازدهارها للعلوم الإسلامية واتسمت بحرية الفكر وأصبح كل ذي رأي يعلن رأيه.

وقام في هذه الفترة فريق يدافع عن آراء السنة بسلاح العقل بجانب النص وظهر الأشعري 324 هـ، في قلب العاصمة الإسلامية يعلن ارتداده عن المعتزلة ومناصرته لآراء أهل السنة.

المبحث الأول: نشأة المذهب الأشعري

أبو الحسن الأشعري: هو أبو الحسن علي بن اسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم ابن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة عامر بن أبي موسى الأشعري، ولد سنه 260 هجري بالبصرة، ونسبة الأشعري إلى أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله ρ فيها تشريف للأشعري، ولقد أفاض ابن عساكر في ذكر فضائل هذه النسبة.[1]

تتلمذ الأشعري على يد أبو علي الجبائي، وقد ضل الأشعري على مذهب الإعتزال لا يفارقه أربعين سنة وكان ينوب عن أستاذه في المناظرة وبلغ في الجدال والمناظرة مرتبة كبيرة وقد ذكر أنه مع قوته في الجدل والمناظرة أنه كان رديئا في التصنيف.[2]

ولقد تحول الأشعري عن مذهب المعتزلة وحول أسباب هذا التحول تنوعت القصص التي لم تخل من نسج الأساطير حولها، ويبدو أن أقوى الروايات صدقا هو أن الأشعري حاول التوسط بين الفقهاء الذين جعلوا همتهم على التفقه في الدين بدلائله وحججه من التفسير والحديث والاجماع والقياس وبين المتكلمين الذين قصروا همتهم على الدفاع عن الذين ضد غوائل أعدائه مستخدمين نفس أسلحتهم من الجدل والمنطق وتحكيم العقل وطرح النص جانبا.[3]

عمل الأشعري على أن يكون فقيها متكلما، وأن يجمع بين الفقه والحديث وعلم الكلام وبذا تتوحد الأمة ويختفي الشقاق والنزاع الذي ثار بين المتكلمين وأهل الحديث فتوسط بين المعتزلة والحنابلة.[4]

---

[1] – ابن عساكر، تبيين كذب المفتري فيما نسب للإمام أبي الحسن الأشعري، ص 34.

[2] – ابن عساكر، مصدر سابقص 91.

[3] – جلال موسى، نشأة الأشعرية وتطورها، ص 171.

[4] – ابن عساكر، مصدر سابق، ص 149.

أشهر أعلام الأشعرية:

تتلمذ على يد الأشعري الكثيرون، ولا شك أن قصة رجوعه وما صاحبها كان سببا في انكباب كثير من التلاميذ عليه، والظاهر أن أغلب الدارسين درسوا مجال العقيدة التي أقرها الأشعري بعد رجوعه من الإعتزال.

كما عرف الأشعري كثيرا من التلاميذ، لكنه أخصهم به كما يقول السبكي أربعة : ابن مجاهد، وأبو الحسن الباهلي وبندار خادمه، وأبو الحسن الطبري.[1]

1- **أبو عبد الله بن مجاهد:** من أصحاب الأشعري وهو من أهل البصرة سكن في بغداد وعليه تتلمذ البقلاني وله كتب في الأصول توفي سنة 370هـ.[2]

2- **أبو الحسن الباهلي:** عليه تتلمذ الباقلاني وأبو إسحاق الإس فراييني وابن فورك وكان زاهدا متصوفا توفي سنة 370هـ.[3]

3- **القاضي أبو بكر بن الطيب الباقلاني:** كان ثقة في علم الكلام وأعرف الناس به وأجودهم لسانا وأوضحهم بيانا وله التصانيف الكثيرة، المشرق في الرد على المخالفين من الرافضة والمعتزلة والجهمية والخوارج، وهو مثل أهم شخصيات المذهب الذين أسهموا في تطويره منهجا وموضوعا.[4]

4- **أبو بكر بن فورك:** وهو أديب ومتكلم وأصولي وله تصانيف في أصول الدين والفقه ومعاني القرآن الكريم.[5]

5- **أبو إسحاق الإسفراييني:** كان فقيها متكلما أصوليا، وعنه أخذ الكلام عامة شيوخ نيسابور وله تصانيف عديدة في أصول الدين.[6]

---

[1] – عبد الكافي السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج 03، تح: محمود الطناحي، عبد الفتاح محمد الخالق، ص 368.

[2] – ابن عساكر، مصدر سابق، ص 177.

[3] – الذهبي،مصدر سابق، ج 16، ص 304.

[4] – ابن عساكر، مصدر سابق، ص 218.

[5] – مصدر نفسه، ص 232.

[6] – السبكي، مصدر سابق، ج 03، ص 111.

6- الإمام أبو محمد الجويني (الأب): وهو فقيه أصولي أديب نحوي مفسر، له تصانيف كثيرة الفوائد مثل البصرة والتذكرة، ويقال إنه تبرأ من مذهب الأشعري إلى مذهب أهل السنة.[1]

7- أبو المعالي الجويني: كان يلقب بإمام الحرمين لأنه جاور بمكة أربعة سنوات وقد كان يدرس بالمدرسة النظامية، له مصنفات عديدة في الفقه وأصول الدين.[2]

مؤلفاته:

لأبي الحسن الأشعري مؤلفات كثيرة، قال ابن حزم أن خمسة وخمسين مصنفا وقال غيره أنها أكثر من ثمانين مصنف، ولكن سأشير إلى مؤلفاته التي وصلت لنا.[3]

1- مقالات الإسلاميين وإختلاف المصلين: وهو من أهم كتب المقالات وأوثقها وأدقها في نسبة الأقوال إلى أصحابها ويلاحظ في هذا الكتاب:

أ- نلاحظ معرفة الأشعري بمذاهب أهل الكلام وخاصة المعتزلة وكذلك فعل أقوالهم ومذاهبهم وفروق أقوالهم الدقيقة.

ب- ذكره بالتفصيل لأقوال شيخه في الإعتزال ويعتبر من أهم المصادر لأقوال الجبائي ونلاحظ مدى تأثير الجبائي على الأشعري في المرحلة الأولى من حياته.

ج- ذكره لأقوال السلف الذين يسميهم أهل الحديث وأهل السنة بإجمال لأنه لم يكن خبيرا بتفاصيل أقوالهم.[4]

2- اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع: لم يشك أحد في نسبته إلى الأشعري وقد بين فيه كثير من القضايا الكلامية التي رد فيها على المعتزلة وشرح فيها مذهبه خاصة في مسائل وجود الصانع والقرآن والإرادة والرؤية والكسب والاستطاعة... إلخ.[5]

---

[1] - ابن عساكر، مصدر سابق، ص 257.

[2] -السبكي، مصدر سابق، ج 03، ص 255.

[3] - ابن عساكر، مصدر سابق، ص 136.

[4] - عبد الرحمن الحمودي، موقف ابن تيمية من الأشاعرة، ج 01، ط 01، مكتبة الرشيد، الرياض، 1995، ص 346.

[5] - مصدر نفسه، ج 01، ص 346.

3- رسالته إلى أهل الثغر: وسماه ابن عساكر "جواب مسائل كتب بها الى أهل الثغر" في تبيين ما سألوه عنه من مذهب أهل الحق وهذا الثغر العظيم المسمى باب الأبواب يسكن فيه أناس كثيرون مختلفوا اللغات.[1]

وأما موضوعة: فيشمل على مقدمة طويله حول الاستدلال ومنهج الرسل فيه ثم بعد ذلك عرض لما اجمع عليه السلف في مسائل العقيدة مثل: الصفات والرؤيا والقدرة والنبوة والايمان والصراط والشفاعة والصحابة... إلخ.[2]

4- الإنابة في أصول الديانة: وهو من أهم كتب الأشعري وأكثرها إثاره للجدل لأنه يحوي جوانب من العقيدة التي تخالف ما عليه متأخروا الأشعرية خاصة في مسائل الصفات الخيرية والعلو والاستواء.[3]

5- رسالة إستحسان الخوض في علم الكلام: وتسمى رسالة في الرد على من ظن أن الاشتغال بالكلام بدعة ومضمونها الرد على من زعم أن الاشتغال بعلم الكلام والمصطلحات الحادثة بدع لم تكن في زمن النبي ρ وأصحابه رضي الله عنهم.[4]

هذه مؤلفات الأشعرية التي وصلت إلينا وهي قليلة جدا بالنسبة لمؤلفاته الكثيرة.

عقيدة الأشعري:

أ- عقيدته في الأسماء والصفات

أما الأسماء: فيثبت الأشعري جميع ما ورد من أسماء الله تعالى ويعتمد في ذلك على السمع فقط فما ورد أثبته وما لم يرد سكت عن إثباته ولذلك ناظر الجبائي حول هل يسمى الله عاقلا مستخدما هذا المنهج.[5]

---

[1] - ابن عساكر، مصدر سابق، ص 136.

[2] - الحمودي، مرجع سابق، ج 01، ص 348.

[3] - مصدرسابق، ص 349.

[4] - فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ج 03، ص 38.

[5] - أحمد الشهرستاني، الملل والنحل، ج 01، تح: أمير علي مهنا علي حسن قاعود، دار المعرفة، لبنان، 1993، ص 100.

وأما الصفات: فإنه أثبت ما ورد في النصوص وأن كان قد استدل لبعضها بالأدلة العقلية إلا أنه جعل أدلة السمع هي المقدمة ويمكن تفصيل أقواله في الصفات كما يلي:

1- الصفات العقلية : وهي صفات الذات العقلية التي يسميها المتكلمون صفات المعاني وهي سبع صفات، العلم والحياة والقدرة والسمع والبصر والكلام والإرادة.[1]

والأشعري يثبت هذه الصفات ويستدل لها بالنصوص وبالعقل تم ذكر قدم هذه الصفات وأن صفاته لا تشبه صفات المخلوقين كما أن نفسه لا تشبه أنفس المخلوقين، ويحتج على ذلك بدلالة الأسماء على الصفات فيقول: واستدلوا على ذلك بأنه لو لم يكن له عز وجل هذه الصفات لم يكن موصوفا بشيء منها في الحقيقة، ومن لم يكن له فعل لم يكن فاعلا في الحقيقة، ومن لم يكن له كلام لم يكن متكلما في الحقيقة، وأن وصف شيء من ذلك مع عدم الصفات التي توجب هذه الأوصاف له لا يكون مستحقا لذلك في الحقيقة وإنما يكون وصفه مجازا أو كذبا... وذلك أن هذه أوصاف مشتقة من أخص أسماء هذه الصفات ودالة عليها.[2]

2- الصفات الفعلية:

وهي الصفات المتعلقة بإرادة الله ومشيئته مثل الكلام وهو صفة ذات أيضا والاستواء والنزول والمجيء والضحك والغضب والمحبة والتعجب وغيرها.[3]

وقد سبق بيان أن الأشعري لا يقول بالصفات الاختيارية ويبنى ذلك على أن الله لا تحله الحوادث.

لكن الأشعري يثبت ما ورد في النصوص منها، ويتأولها بأحد الأمرين:

1 إما أن يجعل الصفة أزلية، فدعة مع الله لا يتحدد له فيها حال كما يشاء وذلك مثل الكلام والمحبة والرضا.

---

[1] – الحمودي،مرجع سابق، ج 01، ص 418.

[2] – أبي الحسن الأشعري، الإبانة في أصول الديانة، تح: صوفية حسن محمود، ط 01، دار الأنصار، القاهرة، 1977، ص 22.

[3] – الحمودي، مرجع سابق، ج 01، ص 418.

2 وإما أن يجعل مقتضى الصفة مفعولا منفصلا عن الله لا يقوم بذاته كالخلق فان الله خلق الخلق فلم تحل بذاته حوادث لأن الخلق هو المخلوق، وكذلك يقول في الاستواء والنزول إنه لا تقوم بالله صفه وإنما فعل فعلا في العرش سماه استواء كما فعل في السماء الدنيا فعلا سماه نزولا.[1]

الاستواء والعلو:

أثبت الاستواء واستدل به وبغيره على إثبات علو الله تعالى، يقول: "إن قال قائل ما تقولون في الاستواء؟ قيل له: نقول إن الله عزَّ وجلَّ مستوي على عرشه كما قال: الرحمان على العرش استوى" [طه الآية 05]، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: "اليه يصعد الكلم الطيب" [فاطر الآية 10].[2]

هذا مذهب الأشعري وقوله في الاستواء قول أهل السنة كما ذكره في الابانة والرسالة إلى أهل الثغر، ولكن نجد أتباعه ينسبون إليه تفسيرات أخرى.

النزول والمجيئ:

يثبت الأشعري النزول للأحاديث الواردة في ذلك والتي يذكرها كما ثبت المجيء لله تعالى وبذكر أدلته من القرآن وقد شرحهما في رسالته إلى أهل الثغر بما يوضح مذهبه في أنه لا تقوم بذت الله صفات الفعل فيقول: "وليس مجيئه حركة ولا زوال، وليس نزوله تعالى نقلة لأنه ليس بجسم ولا جوهر الصفات الخيرية.[3]

يثبت الأشعري لله الصفات الخيرية كالوجه واليدين والغنى ويستدل لذلك بالنصوص، ويرد على من تأولها مستدلا بنصوص الكتاب والسنة وهذا هو مذهب السلف رحمهم الله.[4]

---

[1] – الحمودجي، مصدر سابق، ص 419.

[2] – الأشعري، مصدر سابق، ص 45.

[3] – الحمودي، مرجع سابق، ج 1، ص 423.

[4] – الأشعري،مصدر سابق، ص ص 51–58.

قوله في الإيمان:

صرح في الابانة، أن الايمان قول وعمل يزيد وينقص وفصل ذلك في الرسالة فقال: "وأجمعوا على أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وليس نقصانه عندنا شكا فيما أمرنا بالتصديق به ولا جهلا به لأن ذلك كفر، وإنما هو نقصان في مرتبة العلم وزيادة البيان، كما يختلف وزن طاعتنا وطاعة النبي ρ وقوله إن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص هو قول أهل السنة والجماعة.[1]

وقوله في الشفاعة وعذاب القبر والحوض والصراط والامامة والصحابة قوله فيها جميعا هو قول السلف رحمهم الله تعالى.

هذا هو أبو الحسن الأشعري الذي يتنسب إليه طائفة الأشعرية وقد بينا حياته وعقيدته وهذا يعطي صورة واضحة لعقيدة هذه المدرسة التي انتسبت إليه واشتهرت باسمه.

[1] – الأشعري ، مصدر سابق، ص 28.

المبحث الثاني: تطور الأشعرية في المغرب

كان القيروان المركز الإسلامي بالمغرب لتقبله للأشعرية ونشرها قبل منتصف القرن 4هـ، وكانت القيروان خلال هذه المرحلة نقطة إشعاع علمي، حيث كان يقدم عليها الطلبة من جهة من المغرب لتلقي العلم بها سواء ما أنتجه علماؤها أو ما جلبوه معهم من المشرق خلال رحلتهم، كما كانت القيروان مرحلة مهمة من مراحل الرحلة إلى المشرق لأهل المغرب.

ومن جهة أخرى فقد ظهرت بذرة الأشعرية في المغرب نتيجة الحاجة إلى طريقة الاستدلال التي أشتهر بها الأشاعرة في جدال الفرق المختلفة، ولما كانت القيروان خلال هذه الفترة نقطة للإشعاع العلمي على كافة أنحاء المغرب والأندلس، وبذلك أصبحت منارة لتلقي العلم بها.[1]

ولم يكن المغرب الاسلامي بمعزل عن التحولات الفكرية التي تعرض لها بلدان المشرق الاسلامي، كما أن علماء المشرق أنفسهم كانوا حرصين على أن تصل آراءهم وذاهبهم إلى مختلف ربوع العالم الاسلامي، وكانت بوابة الغرب الاسلامي ومعبر الآراء والمذاهب إليه.[2]

لعل أول رجل عرف الأشعرية في المغرب الاسلامي هو إبراهيم بن عبد الله الزبيري المعروف بالباقلاني ت 359هـ، والمعروف بمواقفه القوية ضد الشيعة والتي أوذي من أجلها، فقد ذكر البرزلي أنه كان مشايخ الأشعرية ونسب إليه بعض آراء الأشعرية التي أدخلها للقيروان.[3]

[1] – التهامي، مرجع سابق، ج 1، ص 371.

[2] – مصدر نفسه، ص 371.

[3] – عبد المجيد نجار، تجربة الاصلاح في حركة المهدي ابن تومرت، ط 01، تونس، 1984، ص 31.

أما الرجل الآخر الذي عرف الأشعرية في وقت مبكر هو أبو ميمونة دراس إسماعيل الفاسي ت 357هـ،[1] فقد رحل إلى الشرق والتقى أئمة الأشعرية وأخذ عنهم ثم رحل إلى القيروان حيث درس بها، ثم استقر بفاس ونشر بها علمه.[2]

وحتى الإمام أبي زيد القيرواني فقد رحل إلى المشرق وإلتقى بأئمة الأشعرية وأخذ عنهم، وقد كتب القيرواني رسالة للرد على المعتزلي والتي ذكر فيها الأشعري ودافع عنه وبرأه ممَّا رماه به.[3]

رغم ذلك فلا نجد في كتابات القيرواني ما يشير من قريب أو بعيد إلى تأثره بالطريقة الأشعرية، بل كان على طريقة السلف رحمهم الله وكان دائما ينفر من الكلام.

وكان لظهور الإمام الباقلاني ت 403هـ في المشرق كحامل للواء الأشعرية أثر كبير في نشر مذهب الأشعرية في المغرب والسبب يعود في ذلك أنه كان إلى جانب أشعريته في الأصول كان مالكيا في الفروع، لذا أقبل عليه طلبة العلم من المغرب يأخذون عنه المذهب المالكي والطريقة الأشعرية في آن واحد.[4]

وقد أخذ عن أبي بكر البقلاني من أهل المغرب مجموعة من العلماء نذكر منهم: عبد الخليل بن أبي بكر المعروف بالديباجي وبإبن الصابوني، فقد صحب البقلاني مدة ثم رجع إلى المغرب وألف رسالة في الاعتقادات، وممن كان له دور فعال فيما بعد في نشر المذهب الأشعري في المغرب أبو عمران الفاسي ت 430هـ، الذ يتلقى أصول المذهب عن البقلاني ولما رجع إلى القيروان وجلس فيها ظهر علمه وقصده الناس من كل جهة.[5]

---

[1] – هو أبو ميمونة دراس إسماعيل الفاسي، أخذ العلم عن أبي زيد القيرواني، وهو أول من أدخل مدونة سحنون إلى فاس، توفي سنة 357هـ، انظر القاضي عياض، مصدر سابق، ج 3، ص 138.

[2] – التهامي، مرجع سابق، ج 1، ص 371.

[3] – القاضي عياض، مصدر سابق، ج2، ص 466.

[4] – التهامي، مرجع سابق، ج 1، ص 372.

[5] – القاضي عياض، مصدر سابق، ج 02، ص 73.

وقد أرسل البقلاني اثنين من أبرز تلاميذه لنشر المذهب الأشعري بالمغرب وبثه فيه، هما أبو طاهر البغدادي الناسك الواعظ وكان عالما متقنا لعلم الكلام وما من أحد من علماء القيروان إلا وقد أخذ عنه.

وأما الرجل الثاني الذي بعثه البقلاني فهو الحسين ابن عبد الله بن حاتم الأذري [1] الذي دخل القيروان واستوطنها وكان السبب في وروده عليها، وقد أخذ عن هذا الرجل جمع كبير من أهل المغرب كان لهم الدور الأكبر بعد ذلك في نشر العقيدة الأشعرية في المغرب وتعريفها للناس أمثال: عمر الفاسي، الديباجي، ...وغيرهم.[2]

إلى جانب تلاميذ البقلاني الذي أرسلهم إلى المغرب لنشر الأشعرية دخلت كتبه ورسائله ولقيت رواجا في المغرب، مثل: كتاب التمهيد الذي كان يدرسه الآذري وقد بلغ إعجاب اهل المغرب بالبقلاني وكتبه حتى انهم كانوا يرسلون إليه ويستفتونه في الحوادث والنوازل التي كانت تقع لهم.[3]

وكان لكتب ابن فورك ت 406هـ،[4] رواج في المغرب وبخاصة كتابه "تأويل شكل الحديث" وكان دخولها إليه عن طريق العلماء المغاربة الذين رحلوا إلى المشرق ورواة كتاب تأويل شكل الحديث، ابن خير الاشبيلي ت 548هـ،[5] ومن كتب ابن فورك التي كانت متداولة في المغرب أيضا، كتاب "إعتقاد الموحدين" وانتشر في الأندلس إنتشارا واسعا.[6]

---

[1] – هو عبد الله ابن الحسين بن حاتم الأذري نسبة إلى أذربيجان، نزيل القيروان المتكلم الأشعري، تلميذ البقلاني إستوطن المغرب توفي سنة 423هـ، انظر القاضي عياض، مصدر سابق، ج 02، ص 586.

[2] – المصدر السابق، ج 02، ص 216.

[3] – التهامي، مرجع سابق، ج 01، ص 378.

[4] – هو أبو بكر بن محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري، متكلم وفقيه ومفسر أصولي وأديب نحوي، مات مسموما سنة 406هـ، انظر الذهبي، مصدر سابق، ج 17، ص 558.

[5] – هو أبو بكر بن محمد بن خير بن عمر بن خليفة من مدينة اشبيلية ولد سنة 502هـ، فقيه وإمام زاهد، توفي سنة 575هـ، انظر الذهبي، مصدر سابق، ج 21، ص 85.

[6] – التهامي،مرجع سابق، ج 01، 379.

ولعب أبي ذر الهروي دورا هاما في نشر الأشعرية في المغرب، بل هو الذي علم أهل المغرب هذا المذهب وبثه فيهم ونقل الامام ابن تيمية عن الحسن ابن أبي أمامة المالكي أنه قال: سمعت أبي يقول عن أبي ذر الهروي أنه أول من حمل الكلام إلى الحرم وأول من بثه في المغاربة.

وقد أقبل عليه طلبة العلم من المغرب لكونه كان يجمع بين الأشعرية في الأصول والمذهب المالكي في الفروع، حيث يقول ابن تيمية: "وأهل المغرب كانوا يحجون فيجتمعون به ويأخذون عنه الحديث والطريقة الأشعرية ويدلهم على أصلها".[1]

كما يؤكد الإمام ابن كثير صلة أبي ذر الهروي بالمغرب وأثره فيقول: "والمغاربة إنما أخذوا الأشعرية عن أبي ذر الهروي" فمن الآخذين عنه الإمام أبو عمران الفاسي، فقد أخذ عنه خلال رحلته الى المشرق وبعد رجوعه قام بنشر المذهب في المغرب وتم على يده ترويج كتبه ونشرها.[2]

وممن أخذ عن أبي ذر الهروي المغاربة الإمام أبو الوليد الباجي الذي لزمه ثلاث سنوات كاملة يدرس عليه الكلام، كما كان للإمام أبي الحسن الفاسي علاقات علمية مع تلاميذ البقلاني وبخاصة أبي ذر الهروي.[3]

وكان الجويني[4] متكلما واقفا على مذهب المتكلمين المتمثل في أبي الحسن الأشعري ومن كتبه في العقائد كتاب "البيان في الكلام على القرآن، وكتاب الأصول في معرفة ونبوة الرسول ρ، ورسالة في البيان عن حقيقة الإيمان"، وكان لكتبه رواج كبير حيث اعتنى بها علماء المغرب شرحا وتدريسا وبخاصة كتاب الإرشاد وكتاب البرهان.[5]

---

[1] – ابن عساكر، مصدر سابق، ص 255.

[2] – التهامي، مرجع سابق، ج 01، ص 380.

[3] – الذهبي،مصدر سابق، ج 18، ص 537.

[4] – هو عبد الله ابن يونس الجوبي، لقب بإمام الحرمين، ولد سنة 419هـ، تتلمذ على يديه الغزالي، تولى التدريس بالمدرسة النظامية وتوفي سنة 478هـ، انظر ابن عساكر، مصدر سابق، ص 285.

[5] – علي التهامي، مرجع سابق، ص382.

وإلى جانب كتبه ومؤلفاته التي دخلت المغرب واهتم الناس بها اهتماما بالغا إلى جانب ذلك فإن كثير من العلماء المغاربة تتلمذوا عليه أخذوا عنه، كما أن هناك عددا من تلاميذه من أهل المشرق وفدوا على المغرب في مرحلة من المراحل ومن أشهر من تتلمذ له من أهل المغرب عبد الملك ابن موسى بن أبي حجرة وممن تتلمذ من المشارقة في المغرب ابن نصر سهيل بن علي عثمان النيسابوري [1] ت 531هـ، فقد تتلمذ على يد ال جويني وقدم إلى المغرب وأقام بسبتة.

ولكن الرجل الذي كان له الدور الاكبر في نشر طريقة الجويني بالمغرب هو أبو بكر بن العربي الذي رحل إلى المشرق ولقي أعظم تلاميذ ال جويني "أبا حامد الغزالي" حيث أخذ عنه طريقة الجويني في الارشاد.[2]

[1] – هو أبو نصر سهيل ابن عثمان النيسابوري الشيخ التاجر ،أدرك الجويني كان شافعي المذهب، توفي سنة 531هـ ، انظر القاضي عياض ، الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق ماهر زهير جرار، ط1،دار الغرب الإسلامي،1982 ص15.

[2] – علي التهامي ،مرجع سابق ،جزء1 ،ص382.

المبحث الثالث: دور ابن تومرت في ترسيخ العقيدة الأشعرية في المغرب.

لقد ظل المغرب الإسلامي على مذهب السلف في الإعتقاد بظواهر النصوص والصفات الواردة فيها من غير تأويل ولا تشبيه إلى غاية النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، حيث تعمق إنتشار الأشعرية في بلاد المغرب فعمل فقهاء المالكية على إمتلاك بعض مقالاتها لتمكنهم من الرد على خصومهم من الشيعة والخوارج.

إن التطور العقدي الذي عرفه بلاد المغرب راجع أساسا إلى الجدل الثلاثي: المالكي، الشيعي، الإباضي، والجدال بين هذه الأقطاب الثلاثة هو الذي أدى إلى تجذير العقيدة الأشعرية في البيئة المغربية.[1]

فالأشعرية بقيت في شكل مواقف يرددها العلماء والفقهاء ذو الثقافة الدينية العالية في البداية ولم تتحول إلى تيار فكري كامل، وبقي علماء المالكية متشبثين بعقيدة " بلا كيف" التي يرجع تاريخها إلى أواسط القرن الهجري الثاني ولم يواكبوا التطور العقدي.[2]

وبشر بعض العلماء والمؤرخين إلى الدور البارز الذي لعبه ابن تومرت المدخل الحقيقي للأشعرية إلى بلاد لمغرب بصفتها مذهبا إعتقاديا متكاملا، لا بصفتها مواقف متقطعة وهذا ما جعل المقريزي يقول: "أن ابن تومرت هو الذي أدخل الأشعرية إلى بلاد المغرب"[3]

رحلة ابن تومرت إلى المشرق (500هـ/499هـ-1106م/1105م)

لقد كان المشرق بالنسبة لأهل المغرب عامة مح آمال للراغبين في العلم، التواقين إلى التبحر فيه، فلا يتحقق ذلك عندهم سوى بالارتحال إلى عواصم العلم هناك مثل: بغداد، دمشق، مكة والمدينة وغيرها، وقد كانت هذه الرحلة في العرف المغربي عصرا مهما في تكوين الشخصية العلمية، وفي اكتساب الهيئة والاحترام، وهو ما جعل طلاب العلم يحرصون

[1] – ابن خمرة عبد المجيد، المدارس الكلامية بإفريقية إلى ظهور الأشعرية، دار الغرب، تونس، 1986، ص 32.

[2] – عبد المجيد، مرجع سابق، ص 33.

[3] – يوسف إحنانة، تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2007م، ص 38.

شديد الحرص على الذهاب في الرحلة العلمية إلى المشرق، لكي يأخذوا منها منابع الحياة العلمية في مختلف المجالات والمعارف العلمية.[1]

يكاد الاتفاق الذي حصل بين المؤرخين على أن رحلة ابن تومرت إلى المشرق كانت في أواخر القرن الخامس واوائل القرن السادس الهجريين ولكن تحديد السنة بدقة كان محل إختلاف، أما بداية رحلته حسب المؤرخين حيث أنه بدأ من الأندلس ثم مكة وغيرها من المناطق الأخرى.[2]

امتدت إقامة ابن تومرت بالمشرق مدة لا تقل عن العشرة سنوات، حيث استقر حسب المصادر التاريخية بمنطقة بغداد لأنها كانت تعتبر موطن ثراء علمي كبير ومقر لأشهر علماء العصر في مختلف الفنون، وقد أورد ابن خلدون صيغة عامة في فكر مشايخ أبي تومرت بالمشرق حيث قال: "ودخل العراق ولقي جلَّ العلماء يومئذ وفحول النظار وأفاد علما واسعا"[3]

لقد كانت هذه الرحلة الفرصة المهمة التي وضع فيها ابن تومرت مواهبه العلمية والخطابية موقع التجربة، فانطلق يبحث العلم في أواسط المجتمع وكان كلما حضر بمدينة معينة تتيح له الفرصة للتعبير عن آرائه وأفكاره التي كانت تدعوا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

نستنتج أن الرحلة العلمية التي قام بها ابن توكرت إلى المشرق كانت العامل الأساسي في تكوين شخصيته مما انعكس على تكوين ذاته في الجوانب العلمية والفكرية، وهذا ما سيسهل له فيما بعد للقيام بدعوته الموحدية.[4]

---

[1] – عبد المجيد نجار، مرجع سابق، ص 447.

[2] – مصدر نفسه، ص 67.

[3] – ابن خلدون، مصدر سابق، ج 06، ص 466.

[4] – عبد المجيد نعار، مرجع سابق، ص 104.

منهج دعوة ابن تومرت:

لقد تأثر ابن تومرت أثناء دراسته بالمشرق بالنظريات المشرقية في علوم الكلام والسنة والفلسفة فذكر ابن خلدون أنه تأثر بعلوم الأشعرية وأخذ عنهم في تأويل المتشابه في القرآن والسنة،[1] وبعد عودته إلى المغرب تركزت دعوته في البداية على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولكن نجد أن ابن تومرت فصل دعوته أي فصل علمه وعمله بمقدار رغباته السياسية، وأراد أن يضمن لدعوته النجاح عن طريق إرضاء أصحاب المذاهب والآراء المختلفة بجعل عقيدة الموحدين خليطا بين الإعتزال وآراء الشيعة والظاهرية وبعض أفكار الغزالي وبعض المظاهر التي تنسب إلى التصوف.[2]

3- دور الموحدين في دعم المذهب الأشعري سياسيا:

عمل ابن تومرت في المغرب بيده ولسانه لتعميم التصور العقدي الأشعري الصحيح في نظره، فلم يكتف لإنجاح مشروعه بالمغرب الاسلامي على الثورة السياسية، وكان يولي الجانب العلمي التربوي أهمية بالغة في دعوته، فقد كان يهدف لصنع مجتمع جديد انطلاقا من الجماعة التي أحاطت به وألتزمت دعوته.[3]

حارب ابن تومرت كتب الفروع المالكية وأحرقها وشجع كتب المنطق والفلسفة ودعى إلى ثورة على التقليد وشجع الاجتهاد دليل على تكريس ما دعا إليه علماء الأشاعرة كما يقول ابن خلدون: "أن ابن تومرت إعتنى بالتصنيف"[4]

ويمكن إجمالا تصنيف ابن تومرت إلى أربعة مصنفات هي:

---

[1] – ابن خلدون، مصدر سابق، ج 06، ص 466.

[2] – مصدر نفسه، ج 06، ص 226.

[3] – مصدر نفسه، ص 300.

[4] – المهدي ابن تومرت، أعزُّ ما يطلب، تح: عمار الطالبي، المؤسسة الوطنية للكتابة، الجزائر، 1406 85 19، ص 07.

أعزُّ ما يطلب: هو عبارة عن مجموعة الكتب والتعاليم والرسائل في الأصول والعقيدة والحديث والسياسة، اعتنى بجمعها خليفة عبد المومن واشتهرت بهذا العنوان "أعزُّ ما يطلب" لأول عبارة وردت في الكتاب وهي "أعز ما يطلب وأفضل ما يدخر".[1]

مختصر صحيح مسلم: قسمه على أبواب الفقه كعادة كتب الحديث بدءا بكتاب الطهارة، وحرص ابن تومرت على تبليغ المضمون العقدي الأشعري لدعوته علميا وعمليا عن طريق التدريس والتصنيف.[2]

تناول هذا المختصر أفكار ابن تومرت العقدية التي غذتها أفكار الفرق الإسلامية التي عاصرها في المشرق خلال رحلته وغلبت عليها النزعة الأشعرية التي أخذها من المتكلم الأصولي "ابن المعالي الجويني" عن طريق تلميذه الهراس، كما حملت تلك المصنفات مشروع ابن تومرت ودعوته الأشعرية في المغرب فتعمد البساطة واستهداف الجماهير وعدم اثقالها بالأدلة.[3]

ومن هنا نلاحظ سبب انتشار المصنفات الأشعرية الموحدية لها عوامل عدة أهمها:

– بساطتها ووجازتها وبلاغتها فهي في حجمها تسعة صفحات، وأنها غير مثقلة بالأدلة والتعاليق، ومن أسباب انتشار المرشدة أيضا خلوها من دعوة المهدوية والعصمة إذ صبغتها الصبغة الأشعرية المحضة وهي أول مؤلفات ابن تومرت في المغرب بعد عودته من رحلته المشرقية.[4]

– ومما يؤكد على أشعريتها الخالصة أنها لقيت استحسانا وإقبالا من أشاعرة المشرق، فقد ذكر السبكي أن فخر الدين ابن عساكر كان يدرسها بالقدس ويقول السبكي أيضا: "هذه العقيدة المرشدة جزى قائلها على المنهاج القويم والعقد المستقيم" ونقل السبكي قول ابن تيمية

---

[1] – ابن تومرت، مصدر سابق، ص 29.

[2] – مصطفى مغراوي، البعد السياسي في انتشار المذهب الأشعري في المشرق الإسلامي ومغربه، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، 2011، ص 89.

[3] – مصطفى مغراوي، مرجع سابق، ص 83

[4] – عبد المجيد نجار، مرجع سابق، ص 456.

سئل فيها عنها ذكر أنها تنسب لابن تومرت، وذلك بعيد الصحة أو الباطل، لأن المشهور أن ابن تومرت كان يوافق المعتزلة في أصولهم وهذه مباينة لهم.[1]

أما السبب الثاني: هو إصدار عبد المومن مرسوما يأمر فيه عامة الناس أن يشتغلوا بقراءة مؤلفات المهدي ابن تومرت في العقيدة، وضبط لهم في ذلك أقدار معينة وتراتيب للعوام يتبعونها ويلزم به الطلبة والعوام ومن في الديار بقراءة العقيدة التي أولها "إعلم أرشدك الله" وحفظها وفهمها.[2]

ويبدوا أن العناية حظيت بها جميع مصنفات ابن تومرت ولم تكن حكرا على المرشدة وهو ما يقيده قول ابن الخطيب أن ابن تومرت ألف لهم كتابا سماه "القواعد" وآخر سماه "الامامة" هما موجودان بأيدي الناس ذلك الوقت.[3]

وبمجهودات ابن تومرت وخليفته عبد المومن أخذت مؤلفات ابن تومرت طريقها نحو الشيوع ولقيت رواجا بين طلبة العلم في المغرب وحتى في المشرق لا سيما مرشدة ابن تومرت التي صارت مصدرا أشعريا في المغرب يتولاه الشارحون بالتحليل والتفصيل.[4]

كما ساهم القاضي أبو بكر بن العربي الإشبيلي ت 520هـ، في انتشار المذهب الأشعري فقد كان ابن عربي أشعريا معروفا في انتشار المذهب الأشعري،[5] ووصلت به أشعريته إلى التحذير من العقيدة القيروانية واعتبرها خطرا شرس على الصغار والكبار ولكونها تهدد المعتقد الأشعري الناشئ بالمغرب الإسلامي، وتهجم على فقهاء المرابطين في تحريمهم لعلم الكلام بحجة أنه بدعة ولم يكن عليها سلف الأمة وقال في أهل الحديث كلاما

[1] – مصطفى المغزاوي، مرجع سابق، ص 92.

[2] –ابن خلدون، مصدر سابق، ج 06، ص 300.

[3] – مصطفى المغزاوي، مرجع سابق، ص 95.

[4] – مصدر نفسه، ص 95.

[5] – يوسف أحنانة، مرجع سابق، ص 98.

غليظا ووصفهم بأوصاف شنيعة فجعلهم من كاد بالإسلام وأنه لا فهم لهم وليس لهم قلوب يعقلون بها.[1]

ومن هنا نقول أنَّ الأشعرية شقت طريقها إلى المغرب بالسيف والقلم، السيف الذي مثله ابن تومرت والقلم الذي مثله ابن عربي إلا أن حد السيف كان أقوى وأمضى من مداد القلم.

ونتيجة للعناية السياسية المركزة إنتشرت المرشدة وأخذت الأشعرية في المغرب المكانة الأولى.

[1] – المرجع السابق، ص 98.

الفصل الرابع:

موقففقهاءو علماءالمالكيةمنالدعوةالموحد

ية (الأشعرية)

لقد عرف المغرب مع ظهور الموحدين مذهبا فقهيا وعقديا مغايرا تماما لما دأبوا عليه من المذهب المالكي وعهدوه منذ قرون، وإن المتأمل في تاريخ الموحدين يجد أن دعوتهم قامت على اسس دينية بدأت برفض الواقع المنحل حسب زعمهم ولو اقتصرت دعوة الموحدين على الجانب الأخلاقي لكان مقبولا من طرف فقهاء وعلماء المالكية، ولكنها حاولت فرض مذهب فقهي جديد وهو الذي سبب صراعا بين المالكية (أهل السنة) أنصار المذهب القديم والدولة الموحدية صاحبة المذهب الجديد.

المبحث الأول: رفض فقهاء المالكية للدعوة الموحدية الأشعرية.

تطور هذا الرفض إلى صراع من جهة الفقهاء المالكية برفض الدولة الموحدية وما دعت إليه بطرق عديدة نلخصها كالآتي:

1- القبول ومظاهره: بايع علماء المالكية الموحدين كعامة الناس، ولكن لا يمكن إعتبار مبايعة بعض فقهاء المالكية للموحدين من باب الضعف والخوف والتسليم للأمر الواقع مثلما فعل بعض الفقهاء الذين خلعوا بيعة الموحدين لما أتيحت لهم الفرصة لفعل ذلك كما حدث لحسين بن علي المسيلي الذي بايع بنوا غانية الذين جاؤوا ليعيدوا الأمر للمرابطين.[1]

لقد تولى المالكية بعض المناصب في ظل الدولة الموحدية، ولا شك أنه ليس كل من تولى المناصب يكون سائرا في فلك الموحدين ومن هذا المنطلق لا يمكن اعتبار كل مالكي تولى منصبا كان راضيا بالموحدين ومن الأمثلة على ذلك.[2]

نجد ان عبد الحق بن محمد، [3] كان ممن تولى منصبا وهو قضاء غرناطة وإشبيلية ومراكش، فنجد ان له ردًّا على ابن حزم ولم يكن مرضيا عند الموحدين، حيث كان له محنة معهم ومع هذا تولى منصبا، ونجد كذلك عمارة بن يحي [4] تولى قضاء بعض نواحي بجاية ولما دخل بنو غانية بجاية بايعهم مباشرة.[5]

ومن هنا نشير إلى أن هذا الفقيه تولى منصبا وكان رافضا للموحدين وقبل المنصب ولكن عندما فرض أمر آخر خلع البيعة وفعل فعلته وهذا مثال على أمثلة كثيرة.

---

[1]- لغبريني أبو العباس أحمد، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: ربح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 68.

[2]- يونس بحري، الفقه المالكي في العصر الموحدي، رسالة ماجستير، قسم اللغة والحضارات، جامعة الجزائر 1، الجزائر، 2001، ص 105.

[3]- هو محمد عبد الحق بن محمد الأنصاري، فقيه على مذهب مالك، تولى القضاء، له كتاب في الرد على ابن حزم، توفي سنة 631هـ، أنظر الأبار، مصدر سابق، ج 03، ص 42.

[4]- هو أبو ضاهر عمارة بن يحي بن عمارة الشريف الحسني، فقيه وأديب، لم يذكر له الغبريني تاريخ وفاة، أنظر الغبريني، مصدر سابق، ص 76.

[5]- يوسف بحري، مرجع سابق، ص 105.

إن تولي المناصب الادارية والسياسية لا يمكن إعتباره من القبول طوعا بل يمكن اعتباره من القبول على كره كأبي الفضل بن محشرة [1] الذي رحل عن كره من بجاية إلى مراكش بعد إستدعاء الحاكم لتوليه الكتابة وفي هذا الكلام ما يوحي إلى أن بعض الفقهاء كانوا يتقبلون المناصب كرها وخوفا من أن يفتنوا.[2]

لم يقتصر دور علماء المالكية على بث العلم ونشره فقد سارعوا إلى الجهاد والدفاع عن بيضة الاسلام خاصة تلك الفترة التي عرفت نشاط عسكري ومعارك طاحنة بين المسلمين بقيادة الموحدين والنصارى، ولا يمكن اعتبار مشاركة علماء المالكية إلى جانب الموحدين مقبولا من هؤلاء العلماء للموحدين بل كانت مشاركتهم في الجهاد من باب نيل الأجر وطلب الشهادة والدفاع عن أرض الإسلام لا عن الموحدين.[3]

ونشير هنا أن جهاد فقهاء المالكية تحت راية الموحدين لا يمكننا أن نجعله في خانة القبول لأن هؤلاء العلماء يدافعون عن الإسلام لا عن الموحدين.

ومن الأمور التي توحي برفض الفقهاء والعلماء للموحدين هو عدم الدعاء لهم على المنابر حيث برز بعض العلماء المالكية ممن كانت لهم الشجاعة الكافية لعدم الإلتزام بهذا الأمر، فقد كان ابن مجاهد [4] لا يدعوا اثر الصلوات على الهيئة المتعارف عليها وهو ما سبب نقمة بعض الموحدين عليه، ونفس الشيئ فعله أبو الحسن بن الصانع الذي كان لا يرضى خطبة الموحدين لما اشتملت عليه من ذكر المهدي.[5]

---

[1]– هو الفقيه أبو الفضل بن محمد بن علي التميمي، المعروف بإبن محشرة، كان له علم متسع المدى، توفي سنة 538هـ، انظر الغبريني، مصدر سابق، ص 83.

[2]– الغبريني، مصدر سابق، ص 83.

[3]– يونس بحري، مرجع سابق ، ص 107.

[4] – هو أبو عبد الله محمد بن عبيد الله، ويعرف بابن مجاهد، فقيه وأصولي، كان لا يحب التقرب من الملوك، وكان لا يدعو اثر الصلوات للموحدين، توفي سنة 174هـ، انظر ابن الأبار، مصدر سابق، ج 02، ص 42.

[5] – ابن خلدون، مصدر سابق، ج 01، ص 328.

2- الرفض ومظاهره:

تعتبر الثورة والمقاومة بالسلاح من أعنف الطرق التي استعملها المالكية لرفض الموحدين فنجد أن المالكية لم يدخروا جهدا ضد هذه الدول الزاحفة على المغرب، ولعل أهم سبب جعل هؤلاء العلماء يثورون على الموحدين هو مذهبهم العقدي المخالف للمذهب المالكي ولقد تجسدت هذه المقاومة في ثورة أهل سبتة على الموحدين بزعامة القاضي عياض سنة 543هـ، فنقضوا بيعة الموحدين.[1]

ومن الأمور التي تصنف في باب رفض المالكية للموحدين هي الردود الكثيرة من علماء المالكية على الأصول التي تقوم عليها مذهب الموحدين والأشعري مثل إبطال القياس وكذلك على ابن حزم، الذي تعتبر كتبه المصدر الأول للفقه الموحدي، فألف عبد الحق بن عبد الله الآزدي كتابا في الرد على ابن حزم.[2]

ومما يدل على عدم قبول الموحدين وعقيدتهم الأشعرية من قبل علماء المالكية هو رفض عبد الله بن محمد الحجري، [3] تولى القضاء وكذلك عبد الحق الاشبيلي الذي رفض توليالخطابة والقضاء للموحدين، وابن حمزةامتنع عن القضاء، وكذلك ابن الزيات، [4] كان معارضا عن الخطط التي كان الفقهاء يتخطن بها.[5]

يعتبر النفور من الإنسان وجفاءه شكلا من أشكال رفضه ولنا بعض الأمثلة التي تدل على المنافرة فنجد أن أحمد ابن منذر بن جمهور، [6] لا يداخل الولاة وأصحابهم ولا يقوم لأحد

---

[1] – يونس بحري، مرجع سابق، ص 113.

[2] – الغبريني، مصدر سابق، ث 69.

[3] – هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي الحجري، أخذ العلم عن أبي بكر بن العربي، كان في غاية الصلاح والورع، ولد سنة 505هـ وتوفي سنة 591هـ، أنظر ابن الأبار، مصدر سابق، ج 02، ص 245.

[4] – هو أبو الحسن عي الشهير بابن الزيات، فقيه حافظ لمذهب مالك محصل له، سكن بجاية ودرَّس بها، لم يذكر له المؤرخون تاريخ وفاته، انظر الغبريني، مصدر سابق، ص 93.

[5] – ابن الأبار، مصدر سابق، ج 02، ص 246.

[6] – هو العباس أحمد ابن منذر بن جهور الأزدي، كان فقيها على مذهب مالك قائما عليه، توفي سنة 615هـ، أنظر إبن فرحون، مصدر سابق، ج 01، ص 211.

منهم إن رأوه، وابن المجاهد الذي كان لا يحب التقرب إلى الملوك ولا تقرب الملوك منه، كان مناصرا لهم مع رغبتهم فيه، وهذا دليل على منافرة هؤلاء العلماء للملوك والولاة ومن رفضهم للدولة الموحدية.[1]

كما نعتبر نكث البيعة شكل من أشكال عدم القبول لأن الانسان لا يستطيع أن يبايع وهو تحت مذهب عقدي مخالف لأصوله (أصول أهل السنة والجماعة)، إذ نستطيع الجزم بأن نكث البيعة اختبارا يعتبر دليلا مباشرا على الرفض كما فعل القاضي عياض الذي نكث بيعته للموحدين وبايع بنو غان يةٍ، وكما فعل أبو الطاهر عمارة بن يحي، الذي لم يكتفي بمبايعة بني غانيةٍ لما دخلوا بجاية كما فعل أبو علي المسيلي [2] الذي بايع أيضا بني غانية ورفض بيعة الموحدين، وقد مدح بنو غانية في قصيدته المشهورة وذمَّ أيضا فيها الموحدين، قال: الحمد لله الذي أعاد الأمر إلى نصابه وأزاله من أيدي غصابه[3]

ومن هنا نلاحظ أن نكث عمارة بن يحي لبيعة الموحدين دليل على أنه يعتبر الموحدين غصاب الخلافة، وهذا دليل على أنَّ عمارة كان يرفضهم، وكذلك علماء المالكية ومثال ذلك أن الموحدين لما استرجعوا بجاية ثأروا على كل من صدر منه قول أو فعل ضدَّ الموحدين.

كان الرحيل والهرب آخر حل استعمله علماء المالكية لكل من نفذت منه أساليب المقاومة ومن لم يجد حيلة لمواجهة دولة الموحدين، فنجد بعض فقهاء المالكية قد فرَّ من الدولة الموحدية كإبراهيم بن الحاج أحمد الأنصاري، [4] فبعد انقراض دولة المرابطين رحل

---

[1] – يوسف بحري، مرجع سابق، ص 117.

[2] – هو أحمد بن أبي القاسم بن أبي عمار أبو العباس المسيلي، قاضي ومحدث في وقته، توفي سنة 580هـ، أنظر الغبريني، مصدر سابق، ص 103.

[3] – يونس بحري، مرجع سابق، ص 118.

[4] – هو أبو إسحاق إبراهيم بن الحاج أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان الأنصاري، ولد سنة 495هـ، وتوفي سنة 579هـ، أنظر ابن الأبار، مصدر سابق، ج 01، ص 110.

واستقر عند أمير بني غانية وهذا الفعل يدل على أنه يكره دولة الموحدين ويرفضها ولا يريد العيش في ظلها.[1]

المبحث الثاني: محنة فقهاء وعلماء المالكية

إن محاولة الدولة الموحدية التمكين لمذهبها العقدي والفقهي جعلها تصطدم بتشدد وتعصب العلماء المالكية أنصار المذهب السائد في المغرب، فنجم عن هذا الاصطدام عدة محن نالت العلماء المالكية.

1- المحن التي تعرض لها المالكية:

لقد تعرض الفقهاء والعلماء المالكية في عهد الموحدين لعدة محن في النفس والأهل أهمها:

أ- **القتل:**لقد تعرض فقهاء المالكية في عهد الموحدين إلى أقسى ما يمكن أن يتعرض الانسان له من أنواع العقوبات ألا وهي القتل، فقد قتل الفقيه بن موسى المغافري، [2] وإبراهيم الحكمي[3] ومنهم من لم يقتل هو بل قتل ولده كأبي بكر بن العربي الذي قتل ابنه أبو محمد عبد الله، بل إن بعضهم تعرض إلى أفظع وأبشع أنواع القتل كالذبح كما فعل بالإمام المومناتي، بل وصل الأمر إلى التمثيل بجثثهم كما فُعِل بإبن الخزرجي الذي قتل وقطع رأسه وعلق.[4]

ب- السجن والإعتقال:

[1] – يونس بحري، مرجع سابق، ص 111.

[2] – هو الفقيه أبو جعفر طارق بن موسى المغافري، تولى الصلاة والحسبةوالمواريث، توفي سنة 556هـ، أنظر ابن الأبار، مصدر سابق، ج 01، ص 234.

[3] – هو الفقيه أبو بكر محمد بن إبراهيم الحكمي، أخذ العلم عن ابن عطية، تولى القضاء بأربولة، قتل سنة 567هـ، انظر ابن الأبار، مصدر سابق، ج 02، ص 35.

[4] – إبن الأبار، مصدر سابق، ج 02، ص 319.

ومن المحن التي نالت الفقهاء المالكية زمن الموحدين الإعتقال والسجن، حيث سجن وقيد أبو بكر بن الجد ، واعتقل الموحدون عمارة بن يحي [1]، وسجنوه هو وبعض أهل العلم لما استرجعوها من أيدي بني غانية.[2]

ج- النهب:

ومن المحن كذلك النهب الذي طال بعض فقهاء وعلماء المالكية في تلك الفترة فلما دخل عبد المومن بن علي مراكش سنة 541هـ، إستباح دماء وأموال أهلها ومن ضمنهم العلماء كابن الصقر الذي انتهبت أملاكه حيث كانت كتبه فقط تقدر بخمسة أحمال، وعلى أنه كاد أن يباع كالعبيد لولا أن عفي عنه، وممن انتهبت ممتلكاته كذلك، إبن القطان الفاسي الذي انتهبت أمواله وكتبه، وكانت أمواله وكتبه التي انتهبت تعدل سبعة عشر حملا، فمات ابن القطان مغتما بسبب ذلك.[3]

د- التغريب أو الاقامة الجبرية:

ومن المحن كذلك تغريب الموحدين لبعض العلماء عن أوطانهم وإبعادهم وإجلاءهم عنها، كما حدث للقاضي عياض الذي غرب عن بلده سبتة إلى مراكش التي مات فيها، وابن الحاج[4] الذي غربه السلطان من وطنه ألمرية إلى مراكش التي توفي بها كذلك بعد إقامته بها أشهر.[5]

---

[1] – هو الفقيه أبو طاهرة عمارة بن يحي بن عمارة، تولى القضاء في بعض نواحي بجاية زمن الموحدين، انظر الغبريني، مصدر سابق، ص 76.

[2] – يونس بحري، مرجع سابق، ص 147.

[3] – يونس بحري، مرجع سابق، ص 148.

[4] – هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن خلف، المعروف بابن الحاج أخذ العلم عن ابن الغزال، كان من أهل العلم وغلب عليه التصوف، توفي سنة 616هـ، انظر ابن الأبار، مصدر سابق، ج 01، ص 118.

[5] – يونس بحري، مرجع سابق، ص 150.

وأما من امتحن بالإقامة الجبرية، فنجد عبد الرحمن بن يخلفتين، الذي ألزمه السلطان داره بسبب جفوة نالته منه، ويدخل في هذا من اختبئ من السلطان كعلي بن عبد الملك اللجمي[1] الذي توفي ممتحنا بالاستخفاء خائفا من السلطان.[2]

د- العزل من المناصب:

نالت الفقهاء والعلماء محنة وهي عزل بعضهم التي تبوؤوها فقد أشار بعض المؤرخين إلى أن عزل بعض العلماء والفقهاء عن الخطط التي كانت تحت أيديهم إنما كان بدافع معاقبتهم، كما حصل مع ابن القطان الفارسي الذي كانت بيده ثلاث عشر خطة كلها أو جلها مفيد، ثم نزع أغلبها انتقاما منه، كما نجد أن كثيرا من الفقهاء قد عزلوا عن القضاء ومنهم عبد الرحمان اللجمي الذي صرف عن قضاء الجماعة.[3]

الأسباب التي امتحن من أجلها المالكية:

بعد استقراء تراجم الفقهاء والعلماء يتبين لنا عدة أسباب أهمها:

-ثورة الفقهاء على الموحدين سببت نقمة لم يتسامح معها ملوك وسلاطين الموحدين على من رام الثورة عليهم، فقد قتلوا واحترزوا رأس ابن الفرس الغرناطي الذي ثار عليهم بنواحي مراكش، [4] أما القاضي عياض فقد شفع له قدره ومنزلته الرفيعة في المجتمع

[1] – هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الله اللخمي الباجي، تولى الصلاة والخطبة والقضاء، توفي سنة 695هـ، انظر ابن الأبار، مصدر سابق، ج 03، ص 118.

[2] – مصدر نفسه، ج 03، ص 118.

[3] – يونس بحري، مرجع سابق، ص 153.

[4] – ابن الأبار، مصدر سابق، ج 03، ص 116.

المغربي، لنال نفس العقاب عند الموحدين، لكنهم اكتفوا بتغريبه عن بلده سبتة إلى مراكش.[1]

-كان الموحدون لا يتسامحون في الثورة عليهم ومحاولة أخذ سلطانهم، لذا كانوا يراقبون كل من يسطع نجمه من العلماء وارتفع قدره بين الناس خوفا من أن يثور عليهم كما فعل ابن الفرس والقاضي عياض، [2] ولما ارتابوا في أمر شيخ الصوفية أبي مدين شعيب واجتماع الناس حوله وتشبيهه بالمهدي إستدعاه الحاكم للتحقيق معه إلا أنه توفي قبل أن يصل إليه.[3]

-إنَّ إمتناع الفقهاء والعلماء عن تولي المناصب هو أمر يخالف السلطان ويفهم منه على أنه انتقاص وشق لطاعة السلطان، ومنها رفض بعض العلماء تولي بعض المناصب لسبب أو لآخر، فكان هذا مما جلب نقمة الموحدين عليهم كما جرى لابن أبي حمزة الذي إمتحن في إمتناعه عن تولي القضاء.[4]

-لقد عانى فقهاء المالكية على ما يذكره عبد الواحد المراكشي في زمن الموحدين بسبب المذهب المالكي الذي يتبعونه، وخصوصا في عهد المنصور الذي كان قصده في الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة، فأحرق كتب الفقه المالكي وتوعد الناس بالعقوبة الشديدة.[5]

-لقد كان لصراعات الموحدين على الحكم أثر سلبي على بعض الفقهاء والعلماء المالكية الذين راحوا ضحية هذا التسابق المحموم على الحكم، ولعل أبرز من نال ويل وجحيم هذا

[1] – ابن فرحون، المصدر السابق، ج 02، ص 38.

[2] – الغبريني، مصدر سابق، ص 60.

[3] – ابن الأبار، مصدر سابق، ج 01، ص 118.

[4] – المصدر السابق، ج 01، ص 71.

[5] – الغبريني، مصدر سابق، ص 60.

الصراع هو ابن القطان الفارسي الذي انتقم منه الخليفة الموحدي لأنه أشار عليه بالسوء لما اجتمع أهل الحل والعقد في تعيين من يقلد الخلافة.[1]

-من الأمور التي من أجلها إمتحن بعض المالكية بمحنة العزل من المذهب وهو عدم تأدية هؤلاء العلماء لمهامهم على الصورة التي تجب، فقد حجر والي ميورقة على القاضي عبد الغني الصيدلاني [2] ومنعه من الفصل في القضايا الدقيقة والكثيرة إلا بمحضره وذلك لعدم نزاهته إذ كان لا يحسن الأحكام ولم يكن مرضيا.

ونشير هنا أن السبب الذي أدى بالموحدين لإمتحان الفقهاء والعلماء هو تخوفهم الشديد من قيام ثورة تطيح بهم وتذهب بملكهم، لذا حرص الموحدين على التضييق وحصار وتأديب كل من يشكك في نزاهته خاصة من فقهاء وعلماء المذهب المالكي القديم.[3]

المبحث الثالث: صمود وتشبث المالكية بمذهبهم

لقد اصطدم الموحدون في محاولة تطبيق مذهبهم بصمود المالكية على مذهبهم، إذ عمد المالكية إلى إنتهاج عدة طرق من أجل البقاء على مذهبهم، وهذا الصمود هو الذي شجع الناس على عدم التفريط في مذهبهم.

حاول المالكية التمسك بمذهبهم وأصروا على ذلك واستعملوا لذلك عدة طرق:

1- لجأ المالكية إلى حفظ المتون المذهبية كوسيلة للمحافظة على مذهبهم، فبذلك لم يستطع الموحدون محو ما هو محفوظ في صدور العلماء المالكية بحرق كتبهم مثل ما فعل

[1] - مصدر نفسه، ص 77.

[2] - هو أبو محمد عبد الغني بن محمد بن عبد الغني الصيدلاني، لازم عبد المنعم بن الفرس مدة 20 سنة، تولى القضاء، توفي سنة 555هـ، انظر ابن الأبار، مصدر سابق، ج 03، ص 51.

[3] - يونس بحري، مرجع سابق، ص 157.

الموحدون الذين أحرقوا كتب المدونة للفقهية أبو محمد التادلي [1] الذي كتب المدونة من حفظه.[2]

كما يعتبر حفظ مسائل المذهب وأقوال أعلامه من الأمور التي حافظت على بقاء المذهب المالكي في ذلك العهد، فقد كان عبد الله بن زرقون من أحفظ الناس لمذهب مالك.[3]

2- لقد شاع استعمال أسلوب المناظرة بين العلماء خاصة في المشرق وبصفة أقل في المغرب،[4] وذلك للذب عن المذهب وبيان عيوب المذاهب الأخرى، كما انتشرت المناظرات قبل عهد الموحدين وكانت تعقد لها المجالس، ومن أشهر المناظرات: مناظرة ابن حزم مع أبي الوليد الباجي وغيره من المالكية.[5]

ومن خلال كتب التراجم والطبقات يتبين لنا أن هذه المناظرات بقيت تعقد في عهد الموحدين، ولم يتصدر لها إلا ذوي الحجة والإقناع وممن يحسنون المناظرة والحوار والجدل، وكانت تعقد المناظرات في مسائل أصول الدين والفقه، وكان الصراع محتدم بين فقهاء المالكية أصحاب المذهب القديم (أهل السنة) والموحدين أصحاب المذهب الجديد.

3- ويعتبر التأليف من أنجح وأحسن الرسائل التي يمكن بها المحافظة على المذهب هي التأليف فيه والرد على الخصوم من المذاهب الأخرى وبيان خطأها، ولئن كانت المناظرات تعقد بطريقة شفهية فإن الرد على المذاهب الأخرى كتابيا أحسن من المناظرة لأنه قد ينسى الحضور ما قيل في المناظرة ولا يتذكر منها إلاَّ ما قد يعلق بذهنه، أمَّا بالكتابة فإن الرد يبقى محفوظا ويمكن لأي واحد الإطلاع عليه.

---

[1] – هو الفقيه أبو محمد عبد الله بن عيسى التادلي، تولى قضاء فارس، توفي سنة 597هـ، أنظر إبن الأبار، مصدر سابق، ج 02، ص 270.

[2] – يونس بحري، مرجع سابق، ص 178.

[3] – الغبريني، مصدر سابق، ص 167.

[4] – ابن خلدون، مصدر سابق، ج 02، ص 523.

[5] – يونس بحري، مرجع سابق، ص 170.

وقد اشتغل المالكية بالتأليف في كل ما له من صلة بمذهبهم بدأ بالأصول والفقه وإنتهاءًا بالحديث وشرحه، فقد إعتنى المالكية بالفقه وألفوا فيه كتبا جديدة على مذهب مالك.[1]

كما لم يستغنوا عن الكتب القديمة وعكفوا عليها شرحا وتعليقا، فشرحوا المدونة والرسالة والتفريغ والتلقين وكان الحظ الكبير لعلم الأصول والحديث[2] اللذين نالا حظا وافرا من التأليف والتعليق والشرح.[3]

4- إستعمل علماء المالكية الفقه في القضاء والفتيا، فكان له أثر بالغ في بقاء المذهب صامدا في ظل تحديات تلك المرحلة، حيث لم يفرط المالكية في مذهبهم بل راحوا يفتون به ويقضون بين الناس به كذلك، بالرغم من أن مذهب الدولة الموحدية مخالف لمذهبهم وقد كان الفقيه أبو علي المسيلي يقضي بين الناس بالمذهب المالكي، بل لقد أنكر على حفيده لما قضي بغيره

وعاتبه وأخره عن القضاء بسبب ذلك.[4]

5- إن التعصب المذهبي في كونه مذموما بإجماع أئمة الأمصار، [5] إلا أنه ساعد فقهاء المالكية في الحفاظ على مذهبهم من الزوال، فقد كان أبو الحسن بن زرقون مع سعة علمه، كان من كبار المتعصبين بالمذهب، قائما عليه حتى إمتحن بالسلطان من أجله.

أما الفقيه عبد الله بن حسان الغافقي[6]، فقد كان عالما مصمما على المذهب المالكي لا يخرج يخرج عن مشهوره ولا يخرج عن غيره، معتنيا يكتب المذهب حفظا وتدريسا، بل إنه كان لا يرى إلا وكتاب تهذيب المدونة في يده،[7] وكان الفقيه أبو عبد الله القرطبي [1] كثير التقليد، وقد

---

[1] – ابن فرحون، مصدر سابق، ج 01، ص 383.

[2] – إبن الأبار، مصدر سابق، ج 03، ص 109.

[3] – يونس بحري، مرجع سابق، ص 172.

[4] – ابن عبد البر، مصدر سابق، ج 02، ص 107.

[5] – مصدر نفسه، ج 02، ص 359.

[6] – هو الفقيه أبو محمد عبد الله عبد الملك بن محمد بن حسان الغافقي الإشبيلي، فقيه مصمم على المذهب المالكي، أنظر إبن عبد الأبار، مصدر سابق، ج 03، ص 167.

[7] – يوسف بحري، مرجع سابق، ص 173.

وقد حرض فقهاء وعلماء المالكية مثل سهل بن محمد بن سهل الذي أنشد وحرض على إلتماس العلم:

العلم شيءحسن فكن له ذا طلب

وإبدأ بالنحو وخذ من بعده بالأدب

فإذا أردت بعد ذا جاها وفضل مكسب

فافهم أصول مالك وأحفظ فروع المذهب[2]

وكاد إبن مجاهد أن يقتل بسبب إمتناعه من الدعاء للموحدين عقب الصلوات تصميما في ذلك على المذهب (مذهب مالك) الذي يعتبر إلتزام الدعاء بأثر الصلوات بدعة.[3]

6- ومن العوامل التي ساعدت على المحافظة على المذهب المالكي هو التوجه لتدريسه بمختلف أشكاله من الفقه إلى العقيدة إلى الحديث وقد اشتهرت تدريس بعض المصنفات مثل المدونة والتهذيب وغيرها، ومنهم من أنفق عمره في تدريسه ونشر المذهب المالكي وأصوله وفقه كأبي عبد الله ابن زرقون، وأبي محمد الكتاني ومنهم من كانت تشد إليه الرحال في المذهب.[4]

ولقد أوصل علماء المالكية مذهبهم إلى العامة وبسطوه لمختلف شرائح المجتمع وبمختلف لغاته كالبربرية، ورغم منع بعض الفقهاء من التدريس والتضييق وامتحنوا على ذلك، إلا أنَّ هذا لم يثبطهم ولم يثن عزيمتهم عن ذلك.[5]

ولقد كان لصبر الفقهاء العلماء من المالكية وجلدهم وثباتهم عند إمتحانهم من أجل مذهبهم الأثر البالغ في صمود المذهب المالكي إلى يومنا هذا.

---

[1] – هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأنصاري المعروف بالقرطبي، كان كثير التقليد وكان متصوفا زاهدا، أنظر ابن عبد الأبار، مصدر سابق، ج 02، ص 81.

[2] – يونس بحري، مرجع سابق، ص 174.

[3] – إبن عبد الأبار، مصدر سابق، ج 03، ص 256.

[4] – يونس بحري، مرجع سابق، ص 169.

[5] – الغبريني، مصدر سابق، ص 92.

خاتمة

خاتمة:

من خلال هذه الدراسة حاولت معرفة الدور الذي لعبته الرحلة العلمية في انتقال المذاهب الفقهية والعقدية وكيف تشكلت، وكيف ساهمت في انتقال وترسيخ المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية لتصبح المذهب المعتمد لبلاد المغرب الإسلامي فخرجت هذه الدراسة بعدة نتائج أهمها:

- قيام ترابط وعلائق عن طريق الرحلة العلمية بين القطرين المشرقي والمغربي خلال حقبة طويلة من التاريخ، فلقد اتخذ المغاربة من بلاد المشارقة مستقرا لهم وكان أولئك العلماء خير مثال على التعاون والتبادل العلمي بين المغرب والمشرق الإسلاميين.
- كان من دوافع الرحلة العلمية وأهدافها هو المقصد العلمي، حيث كان طلاب العلم يشدون رحالهم إلى مختلف الحواظر خاصة المشرق الإسلامي متحملين مشقة السفر حتى أصبحوا شيوخا وعلماء ساهموا كثيرا في إثراء النهضة الفكرية خاصة في المغرب.
- انتشر المذهب المالكي وساد بإفريقية بفعل عوامل شتى وبرز وتفوق على باقي المذاهب والفرق من حيث امتداده بشكل واضح منذ النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، وكان من أبرز تجلياته كثرة عدد فقهائه وتمسكهم بالأثر هذا ما ساعد على اتساع قاعدته الاجتماعية مما مكن المذهب من الصمود.
- كياسة الإمام مالك مع عد من تلاميذه المغاربة حيث لازمهم وناقشهم في أصول مذهبه وحثهم على نشر المذهب في بلادهم وهذا ما حصل بسبب تماشي مذهب مالك مع الواقع المغربي.
- يعود سبب تقبل مذهب مالك عل غيره من المذاهب لأهل المغرب، باعتباره مذهب المدينة ومذهب أهل الحديث الذي يعتمد على الأثر ونبذ الرأي، وذلك خلاف المذاهب الأخرى.

- أدى فتح باب الاجتهاد في الأصول إلى صدام بين فقهاء المالكية والسلطة الموحدية التي حاربت أنصار المذهب القديم وهمشته ورمت عليه بالتهم مثل النجسم والتعطيل.
- تباينت مواقف علماء المالكية الرافض للعقيدة الأشعرية فيهم من رفض تصريحا ومنهم من رفض تلميحا ومنهم من جاهر مباشرة، كما أنهم لم يتكرموا أثرا للتعبير عن الرفض إلا واستعملوها فقاوموا بالسلاح والعلم.

أسهمت العقيدة الأشعرية في خلق صراع مذهبي وعقدي في المغرب كلفه الكثير من الفتن والقلائل، وذلك بسبب الخلافات العقائدية بين أصحاب المذهب القديم وأصحاب المذهب الجيد واتخذ هذا الصراع سجل علمي استمر إلى غاية يومنا هذا...!؟

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

1. المصادر:

- أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب –ج03، تحقيق: محمد البقاعي، ط 1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1988.
- ابن الآبار القضاعي أبو عبد الله محمد التكملة لكتاب الصلة، ج 04، تحقيق عبد السلام هراس، مكتبة البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت 1415هـ/1995م.
- أحمد بن إدريس القرافي، الذخيرة في فروع المالكية، تحقيق: محمد حجي–ج 1، ط01، دار الغرب الإسلامي، لبنان.
- أحمد الشهرستاني، الملل والنحل–ج 1، تح، أمير علي مهنا علي حسن فاعود، دار المعرفة، لبنان، 1993.
- أحمد بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي، الرحلة في طلب الحديث، تحقيق: نور الدين كثر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1975.
- أحمد بن علي بين حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب–ج 1،ط، دار المعارف النظامية، الهند، 1325.
- ابن جبير أبو الحسن محمد، رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروفة برحلة ابن جبير، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1987.
- جلال الدين السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي–ج 2، تحقيق: أبو عبد الرحمان صلاح بن عويقة، دار الكتب العلمية، لبنان.
- حسين بن عبد الرحمان الراهرمزي، المحدث الفاضل بين الراوي والواعي، تحقيق محمد عجاج الخطيب–ط3، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1984.
- أبي حسن الأشعري، الإبانة في أصول الديانة، تح: صوفية حسن محمود، ط 1، دار الأنصار، القاهرة، 1977.

- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ومدينة السلام–ج 13، تح:مصطفى عبد القادر عطاء، ط02، دار الكتب العلمية، لبنان، 2004.
- شمس الدين أحمد بن بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأبناء الزمان–ج 01، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- الذهبي، ميزان الاعتدال في نق الرجال–ج 01، تح: علي محمد عوض، ط 1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1995.
- شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء–ج 01، تحقيق: شعيب الأرنؤوطي، ط01، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1982.
- عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة،دار الكتاب اللبناني، بيروت،1981.
- عبد الله بن محمد المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية و ازدهادهم ونساكهم–ج 1، تحقيق: بشير البكوش، ط 1، دار الغرب الإسلامي، 1403.
- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى–ج 1، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، 1997.
- ابن العذارى المراكشي، بيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب–ج 01، تح: ج س كولان وإليفي برفشال، دار الثقافة، بيروت.
- عبد الكافي السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج 03، تح: محمود الطناجي، عبد الفتاح محمد عبد الخالق.
- غبريني أبو العباس أحمد، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: رابح بونار، التركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر.
- الفلصادي علي بن محمد، رحلة الفلصادي تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب، تحقيق:محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1988.

- ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب–ج 1، تحقيق: مأمون بن محي الدين الجنائي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك–ج 1، صححه: محمد تاوين الطبحتي.
- محمد بن سعيد بن سبع الزهري، كتاب الطبقات الكبرى، ج– 05، تحقيق:علي محمد عمر، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة 2001.
- مصطفى بن عبد الله المشهور بحاجي خليفة، كشف لظنون عن أسامي الكتب والفنون–ج02،دار إحياء التراث العربي، لبنان.
- محمد ابن شقرون، فيض العباب وفاضة قداح الآداب في الركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دار الغرب الإسلامي، الرباط (د.ت).
- يوسف ابن عبد أكبر، جامع بيان العلم وفضله–ط1، ج1، تح: أبي الأشبال الزهيري، دار أبي الجوزي، المملكة العربي السعودية.

2. المراجع:

- حسن نصار، أدب الرحلة، ط1، دار نويا للطباعة، القاهرة، 1991.
- ابن حمزة عبد المجيد، المدارس الكلامية إلى ظهور الأشعرية، دار الغرب، تونس، 1986.
- صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه، ط 15، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1984.
- عبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدي، الرحلة في الإسلام، أنواعها وآدابها، ط 1، مكتبة دار العربية للكتاب، القاهرة، 1997.
- عبد الواحد ذنون طه، الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق، ط 1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2008.

- عبد المجيد نجار، تجربة الإصلاح في حركة المهدي، ابن تومرت، ط 1، تونس، 1984.
- عبد الله بن سعد اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان–ج02، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1988.
- عبد الرحمان الحمودي، موقف ابن تيمية من الأشاعرة–ج 01، ط1، مكتبة الرشيد، الرياض، 1995.
- عواطف يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن، دراسة تحليلية مقارنة، مكتبة فهد الوطنية 1417هـ–1996م.
- عمر الجيدي، مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، ط 1، دار الهلال العربية، 1993.
- محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي.
- محمد شواط، مدرسة الحديث القيروان من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري–ج01، ط1، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، 1441.
- مصطفى مغراوي، البعد السياسي في انتشار المذهب الأشعري في المشرق الإسلامي ومغربه، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر 2011.
- موسى هيمام، التمكين للمذهب المالكي في المغرب الأدنى والأوسط بين القرنين الرابع والسادس–ج01، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر 2013.
- المهدي ابن تومرت، أعز ما يطلب، تح: عمار الطالبي، المؤسسة الوطنية للكتابة، الجزائر، 1406هـ–1985م.
- يوسف إحنانة، تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2007.

3. المعاجم والقواميس:

- ابن منظور ابن مكرم، لسان العرب–ج 11، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1390.
- محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط–ج3، دار الجيل، بيروت.

4. الرسائل الجامعية:

- صرموح رابح، منهج النقد في الفقه الإسلامي، المذهب المالكي، رسالة دكتوراه، قسم العلوم الإسلامية، جامعة وهران01، 2015.
- إبراهيم علي المقامي، أهل السنة والجماعة في المغرب وجهودهم في مقاومة الانحرافات الفقدية من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن 05، رسالة دكتوراه، قسم العقيدة، جامعة أم القرى، السعودية، 1412هـ.
- يوسف بحري، الفقه المالكي في العصر الموحدي، رسالة ماجستير، قسم اللغة والحضارات، جامعة الجزائر1، الجزائر، 2001م.

فهرس المحتويات

مقدمة

الفصل التمهيدي: ماهية الرحلة العلمية	
المبحث الأول: تعريف الرحلة العلمية	08
المبحث الثاني: أنواع الرحلة العلمية وهدفها	13
المبحث الثالث: أهمية الرحلة العلمية	22
الفصل الأول: المذهب المالكي نشأته وانتشاره	
المبحث الأول: نبذة عن المذهب المالكي	31
المبحث الثاني: دخول المذهب المالكي إفريقية وأسباب تأخر ظهوره واستقراره	36
المبحث الثالث: انتشار المذهب المالكي	40
الفصل الثاني: جهود علماء المالكية في نشر مذهب السنة في المغرب	
المبحث الأول: تأثر علماء المغرب بالإمام مالك	47
المبحث الثاني: جهود فقهاء المالكية في تدوين الآراء العقدية	52
المبحث الثالث: جهود فقهاء وعلماء المالكية في نشر الفقه والحديث	59
الفصل الثالث: المذهب الأشعري في المغرب	
المبحث الأول: نشأة المذهب الأشعري	65
المبحث الثاني: تطور الأشعرية في المغرب	72
المبحث الثالث: دور إبن تومرت في ترسيخ العقيدة الأشعرية في المغرب	77
الفصل الرابع: موقف فقهاء وعلماء المالكية من الدعوة الموحدية الأشعرية	
المبحث الأول: رفض فقهاء المالكية لدعوة الموحدية الأشعرية	85
المبحث الثاني: محنة فقهاء وعلماء المالكية	90
المبحث الثالث: صمود وتشبث المالكية بمذهبهم	94
خاتمة	99

المصادر و المراجع 102
فهرس المحتويات
ملخص الدراسة

فهرس الآيات و الأحاديث

فهرس الآيات

الآية	السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
" إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ"	قريش	02	08
" وَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ، قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ،قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا "	الكهف	65-68	08
"وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلحَجِّ يَأتُوكَ رِجَالا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِر يَأتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيق"	الحج	27	13
" فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرقَة مِّنهُم طَآئِفَة لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَومَهُم إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيهِم لَعَلَّهُم يَحذَرُونَ"	التوبة	122	15

فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة
" سيأتيكم أقواما يطلبون العلم فاذا رأيتموهم فقولوا لهم مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم واقنوهم"	09
" من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهدين في سبيل الله"	09
"ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع"	09
"عليكم بهذا العلم قبل أن يقبض وقبل أن يرفع"، ثم قال: "العالم والمتعلم شريكان في الأجر ولا خير في سائر الناس بعدي وجمع بين إصبعه والسبابة التي تلي الابهام"	16
" ما من رجل يحفظ علما فيكتمه إلا أوتي به يوم القيامة ملجم بلجام من نار"	16